

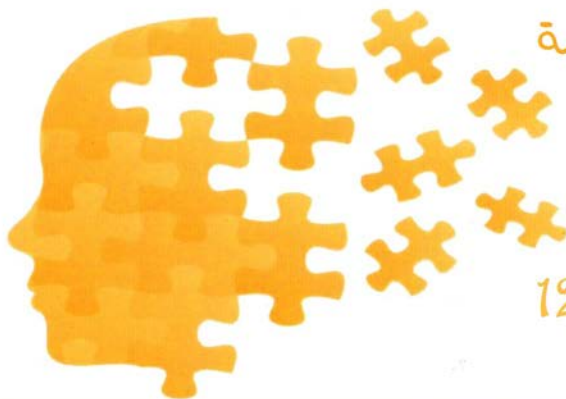
لورانس فانين

# لماذا نتفلسف؟

## سُبُل الحُرِّيَّة

ترجمة وتعليق وتقديم  
محمد شوقي الزين

قديم للترجمة



مكتبة

1292



دار الروافد الثقافية - ناشرون



ابن النديم للنشر والتوزيع

لماذا نتفلسف؟

سُبل الحرية

مكتبة | 1292

العنوان الأصلي للكتاب

Pourquoi philosopher? Les chemins de la liberté

Laurence Vanin

© Ellipses, Paris, 2008

مكتبة

t.me/soramnqraa

5 8 2023

لماذا نتفلسف؟ سُبُل الحُرِيَّة

لورانس فانين

الطبعة الأولى، 2021

عدد الصفحات: 171

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي ISBN: 978-614-466-095-9

الإيداع القانوني: السادسي الأول / 2021

جميع الحقوق محفوظة

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية

خلوي: +213 661 20 76 03

وهران: 51 شارع بلعيد قويدر

ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد

تلفاكس: +213 41 25 97 88

خلوي: +213 661 20 76 03

Email: nadimediton@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية - ناشرون

خلوي: +961 3 69 28 28

هاتف: +961 1 74 04 37

ص.ب.: 113/6058

الحمراء، بيروت-لبنان

Email: rw.culture@yahoo.com

info@dar-rawafed.com

www.dar-rawafed.com

ابن النديم للنشر والتوزيع دار الروافد الثقافية - ناشرون

لورانس فانين

# لماذا نتفلسف؟

سُبُل الحُرِيَّة

ترجمة وتعليق وتقديم

محمد شوقي الزين

مكتبة | 1292



# المحتويات

11	تشكُّر
13	تقديم المترجم
19	تصدير
21	مقدمة
25	القسم الأول: التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ الْفِكْرِ
27	1 التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ الْفِكْرِ
29	متابعة الدهشة
36	الدهشة والبحث عن الحقيقة
40	الدهشة والفضول الفكري
45	2 في الاستعمال السديد للعقل
47	الإنسان: حيوان عاقل
55	الشك وإدراك الفكر لذاته
63	3 التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ بُلُوغِ الْمَعْرِفَةِ
65	محبَّة الحكمة
70	الثقافة والاستقلالية
75	القسم الثاني: التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ الْفِعْلِ
77	1 كينونة الفعل
79	المشورة

84	..... الاعتدال
95	..... قاعدة فعلنا 2
97	..... نحو مذهبٍ في الواجب
101	..... التحوُّل الضروري
107	..... القسم الثالث: متى ولماذا نَتَفَلَّسُ؟
109	..... متى نَتَفَلَّسُ؟ 1
111	..... عند وقت الشباب
128	..... عند وقت «الشَّيخوخة»
139	..... من أجل العيش الرَّغْد 2
141	..... عدم الخشية من الموت
145	..... الحرِّيَّة والمسؤولية: إثبات خلاق للحياة
153	..... الخاتمة
155	..... مقتطفات
160	..... أسئلة من أجل النقاش والمقالة الفلسفية
161	..... اختبار معلوماتك
163	..... الأجوبة
165	..... المراجع
167	..... مسرد الأعلام
169	..... مسرد المصطلحات

«لأن الذي يعرف، لا ينبغي عليه أن يقول لا أعرف... عليه أن ينقل، إنها الطريق نحو كونية المعرفة ونحو التواضع» - (لورانس فانين-فيرنا).





إلى ذكرى كلوديووس وروجر،  
إلى ليلي وبير،  
إلى ساندي، روبي،  
إلى عائلي،  
إلى طلبتي من مختلف الأعمار.



## تَشْكُرُ

أَتَقَدَّمُ بالشكر الجزيل على وجه الخصوص إلى  
ماريز بودريز لإسهامها القيِّم ومشاركتها الحميمية في  
جامعة الوقت الحر في طولون.

جان-بيير مالتيس، رسَّام وفنَّان تشكيلي، لنوعية  
الرسم الذي يزدان به غلاف الكتاب ويُدرج الملاحق.  
جاكلين وبول موزيكوناسي لصداقتهما «الظريفة».  
بيير، من أجل نصائحه النبيهة.

الشكر كذلك لكل الذين سيقرأون هذا الكتاب.



تقديم المترجم

مكتبة

t.me/soramnqraa

أخيراً كتابٌ متكامل وتربوي وبيداغوجي، يُلبّي الحاجة التعليمية لتلاميذ الثانوية ولطلبة الجذع المشترك والليسانس فلسفة، بل ويُلبّي حاجة كل التخصصات والفروع العلمية، وحاجة القارئ الذي يريد مقدّمة واضحة للفلسفة، سهلة وبدون تكلف أو زخرف القول. عندما انتهيتُ من ترجمة كتاب الفيلسوف جون غرايش «العيش بالتّفلسف: التّجربة الفلسفية، الرّياضات الروحية وعلاجات النّفس» (منشورات هيرمان، باريس، 2015؛ الترجمة العربية: منشورات مؤمنون بلا حدود، بيروت، 2019)، وجدته في غاية الدّقة والوفرة (500 صفحة في الطبعة الفرنسية)، يعرض فيه الاستعارة العلاجية التي تداولها الفلاسفة، وقت كانوا أطباء الجسد والنفس، لمعالجة أسقام الحضارة ومحاولة فهم العلل التي حلّت بنا والأمراض التي استبدّت بنا وطريقة مداواتها بالتّفلسف الحامل لروح البحث والصّبر والاعتدال والتحكّم في النّفس وضبط الانفعالات؛ أقول بعد أن انتهيتُ من ترجمة كتاب غرايش، رأيْتُ بأنه يناسب

الأساتذة والباحثين وطلبة الدكتوراه وعموم المفكرين، ثم بادرتُ بترجمة كتاب لورانس فانين «لماذا نتفلسف؟ سُبُل الحرِيَّة» (منشورات إيبس، باريس، 2008، ط 2، 2017) كتكملة للترجمة الأولى، ولأنه يُوفّر أساسيات التّفلسف للقارئ البسيط من بين عموم الناس وتلاميذ الطور الثانوي وطلاب الجامعة.

كان لا بدّ من القيام بهذه الترجمة نظراً لافتقار مكتبتنا العربية بتأليفات تعليمية في تناول الجميع، ولأن التّفلسف كما تدافع عنه لورانس فانين في كتابها هذا، هو مسألة الشاب والشّيخ، بل هو أيضاً مسألة الطفل الذي يطرح أسئلة مُندهشة ومُدهشة، وينتظر من يُقوم سؤاله ويضبطه ويربطه بوجوده الخاص وبمعيشه المباشر. يمكن القول بأن الممارسة الفلسفية التي تنبيري من هذا الكتاب هي عمل جماعي في اكتشاف الذات واكتشاف الحقيقة في التاريخ وفي باطن كل واحدٍ منّا بالأدوات الاستفهامية والتعجّبية (لماذا؟)، الباحثة عن العلل والأسباب (كيف؟) والمبتغية للغاية (لأيّ غرض؟). غالباً ما يُطرح السؤال المُؤرق حول الفائدة من الفلسفة: ما المغزى منها؟ ماذا تريد؟ غير أن هذا السؤال يتحدّث بمنطق الغاية لا الوسيلة، يبحث عن النتيجة ويتخلّى عن السّيرورة. يبحث عن الغاية التي تؤول إليها الفلسفة،

بينما غاية الفلسفة في ذاتها، في تكوين الإنسان، في ثقيفه، في حثّه على الانتباه إلى العالم وإلى الآخرين: «هذا العلم [أي الفلسفة] هو الوحيد من بين العلوم الذي يبقى حُرّاً، لأنه الوحيد الذي له غايته في ذاته» يقول أرسطو.

معنى ذلك أن الفائدة التي نجنّنها من الفلسفة ليست في النتائج، بل في الوسائل؛ ليست في الغايات، بل في المبادئ، أي أنها تُعلّم الضبط الفكري للمفاهيم والانضباط الأخلاقي للذات، تُعلّم كيف يشتغل المرء على ذاته، كيف يُكمّلها بما نقص فيها من فضائل، يُصبح فلاح نفسه، يقتلع الأعشاب الضارّة والسامّة ويزرع الشجيرات التي تكبر وتنضج وتثمر. في الحقيقة، دور الفلسفة ككل الأدوار: غالباً ما نلتفت إلى النتائج وندع الوسائل التي أدّت إلى النتائج، نقف منبهرين أمام فنّان حَقّق روائع فنيّة في الرّسم أو الغناء أو الرّواية أو الشّعْر أو المسرح أو الرقص أو الرياضة، لكن ننسى بأن هذه النتائج لم تأت من السّماء، بل هيّأ لها الفنّان الشروط الذاتية والموضوعية لإنجازها، بسهر اللّيالي والتعب والصّبر والمثابرة والمجاهدة والعمل الحثيث، أي أنه اشتغل على ذاته بتحسينها وتجويدها وتكميلها. هذه هي الفلسفة بالضبط! فلسفة في تكوين الإنسان، في تكميله

بالفضائل والقيم والعمل من أجل نتائج يرضى عنها  
ويجني بها السَّعادة.

من يقرأ النصوص الفلسفية التي جابت التاريخ  
ووصلت إلينا، يُدرك بشكل بارز الطابع التكويني  
للفلسفة، التي تُعلِّم كيفية النَّجاح قبل النَّجاح نفسه، تُعلِّم  
الاستعمال السَّديد والوجيه للوسائل المؤدِّية إلى النَّجاح،  
باستعمال العقل والحُكم والنَّقد، وتقدير الوضعيات ووزن  
الأمر بمكيال الرّويّة والحصافة والتبصُّر. لأن الوصول  
إلى النتيجة والظَّفَر بالنَّجاح مرهون بسلامة الوسائل  
المؤدِّية إلى ذلك. فلا ننتظر أن تتكلَّل جهودنا بالنَّجاح إذا  
لم نُحضِر أنفسنا لذلك، إذا لم نكن صادقين مع ذواتنا،  
وإذا لم نتفادى الغش والخداع لاختصار الأزمنة  
والمسافات والوصول إلى النَّجاح بسرعة. عواقب هذا  
السُّلوك وخيمة لأنها غير طبيعية وتترتَّب عنها نتائج  
خطيرة على المستوى الأخلاقي والاجتماعي. تُعلِّم  
الفلسفة بأداة التَّفلسُّف، كيف يصبر الإنسان، الصَّبْر على  
المعرفة باقتنائها، الصَّبْر على الذات بتكوينها وتثقيفها،  
لأن عندما يصل الإنسان إلى النتيجة ويصبح طبيباً أو  
مُعَلِّماً أو مديراً أو رجل أعمال أو سياسياً، يعرف أنه  
سلك الطريق الطبيعي في تكوين ذاته وتكوين من يأتون  
من بعده، وتحمَّل الأعباء والمشاق، بوصفها نيراناً



تطهيرية لذاته من أدران الحُمق والجهل والاضطراب.

بهذا المعنى تُعَلِّمُ الفلسفة كيف نصير بشراً، كيف يكون الإنسانُ إنساناً ويظفر بإنسانيته، ويؤدِّي أدواره ويتحمَّل مسؤوليته. فالمسألة هي سلسلة طويلة ومتكاملة من الوظائف: من يتكوَّن بالصدق الخالص مع نفسه ومع غيره، يُكوَّن الأجيال التي تأتي بعده بصدق ويهيئها للمهام الحضارية، فتكتمل السلسلة وتتواصل؛ أما نفاذ الصَّبر وابتغاء النجاح بكل الوسائل، بما في ذلك الخسيسة في الغش والفساد، فإن السلسلة تنقطع ومن لا يتكوَّن بجِدٍّ وجودة، يعجز عن تكوين غيره ومن يأتي بعده، وهذا تفويت خطير للفرصة مع التاريخ والحضارة، أي السقوط التدريجي في الانحطاط في جميع المستويات والمجالات. هذا ما تريد الفلسفة تفاديته، لذا جاءت أيضاً كطريقة علاجية في مداواة الجزع والقلق والاضطراب العاطفي والانفعال، ودرأ كل ما من شأنه أن يُعكِّر صفو الانتباه والتركيز على الذات. هذه هي الفلسفة لمن يبحث عن فائدتها، فائدة حضارية وروحية، تُنمِّي الحسَّ النقدي بالاشتغال على الذات والانتباه لمسار العالم، لأن الفائدة هنا سلوكية وتكوينية تخصُّ كل المجالات: من لم يتكوَّن في أي مجالٍ (الطب، التقنية، السياسة، الاقتصاد، إلخ) بالقدر المطلوب، فهو

أعجز عن تكوين غيره وأداء مهامه وفهم شرطه الإنساني وفهم وضعيته الوجودية. هنا بالضبط ينبري الطابع التكويني والكوني للفلسفة، عالميتها ودورها التَّناموي والمستدام، الفلسفة الخالدة (philosophia perennis).

محمد شوقي الزين

وهران، 23 يونيو/حزيران 2020

## تصدير

من ينسى الوعد في متابعة هذه المادّة التعليمية المشوّقة، التي تُكتشف لدى الترشّح للباكالوريا؟

تمرُّ السنوات، البعض وفي بالوعد وجعل من الفلسفة مركز بحوثهم الجامعية. البعض الآخر، المنهمك في الحياة المهنية والعائلية، لم يفِ دائماً بالوعد وشعر دوماً بالإحباط من جرّاء ذلك. بحكم أنها كانت من الأوائل وتعرف الأواخر، قامت لورانس فانين-فيرنا بحمل القلم وتدوين هذا الكتاب.

دكتوراه في الفلسفة، تُدرّس لورانس فانين-فيرنا الفلسفة العامة، تاريخ الفلسفة، الفلسفة السياسية، تاريخ الأفكار السياسية في جامعة الوقت الحر في جامعة الجنوب (طولون-فار) منذ 1998، وفي كلية الحقوق في طولون، وأيضاً في كلية الحقوق في دراينيان منذ 2004. لم تتوقّف منذ عشر سنوات عن استهواء الجمهور الصارم والمتنوّع، وأفلحت في الرهان الذي لم يكن سهل الربح مسبقاً: الربط بين التأمّل الفلسفي وبين «الشباب القائم» و«الشباب الذي لا يزال».

يتوجّه الكتاب الذي تُقدّمه لورانس فانين-فيرنا اليوم إلى الجمهور العام، لأن لورانس تعلّمت من كل الجماهير. في فصلين مرّكبين بانسجام، تُعالج لورانس فانين-فيرنا المباحث الكبرى للفلسفة، الفكر والفعل، بالطريقة التي تدفع القارئ لأن يتساءل مع الكاتب: «لِمَ الفلسفة ومتى الفلسفة؟». تقترح لورانس فانين-فيرنا لهذين السؤالين أجوبة شخصية ووجيهة.

إذا كان ثمة كتب فلسفية من أجل المترشّحين للباكالوريا، أو للمتخصّصين، لا يوجد سلسلة وسطى موجّهة للجميع. تتوجّه هذه المحاولة بأبعادها لأولئك الذين يريدون اكتشاف الفلسفة وإعادة اللقاء بها. تقترح لورانس فانين-فيرنا مصاحبتهم في هذه الطريق التي تؤدّي إلى سعادة التأمل.

ماريز بودريز

نائب-رئيس جامعة الجنوب (طولون-فار)

مديرة جامعة الوقت الحر لجامعة الجنوب (طولون-فار)

## مقدمة

غالباً ما يدخل الإنسان في نمط روتيني من الحياة: «الميترو، العمل، النوم»<sup>(1)</sup>، وهو في شراك الحياة الصاخبة للمجتمع. يرتبط وجوده ذو الإيقاع الفاعل والمعقد بعمله وأهله وتسليته.

(1) يُطالبه العمل بأن يكون منتجاً ومتعدّد الوظائف وفي مستوى التقدّم. تصبح المناقشات المتواترة والمتكرّرة التي تستلزمها هذه المطالبة ثقيلة ومُجهدة.

(2) العائلة، في الغالب مرغبة من جديد، التي ينتظم معها تبعاً لنشاطات وأجندات كل فرد، للتوفيق بين رغبات وإرادات الجميع.

(3) التسلية وتقليص مدّة العمل (RTT) والخامس والثلاثون ساعة من العمل الأسبوعي، إلخ.

---

(1) العبارة الفرنسية: «الميترو، العمل، النوم» (métro, boulot, dodo) مستوحاة من قصيدة بيير بيارن 1902-2004 (Pierre Béarn)، تُبرز وتيرة الحياة الروتينية لدى سكان باريس. (المترجم).

لم يتحصّل الإنسان على وقتٍ مخصّص للتسلية  
مثلما تحصّل عليه اليوم. لكن بين الخمول أو الحركة  
المُسرفة والحاجات المالية الضرورية للازدهار الجسدي  
أو العقلي لكل واحدٍ، لا شيء بديهي. في زمن التلفاز-  
الواقع والأنترنت والوجبة السريعة والسباق نحو  
الاستهلاك والوجود المتسارع، هل يمكن أخذ وقت  
استراحة من أجل التّفلسف؟ هل بقي مكان للتّفلسف؟  
وخصوصاً: لِمَ التّفلسف؟

سنرى في البداية كيف أن التساؤل والتفكير الفلسفي  
مفيدان للفكر، يُشجّعان فينا اقتناء مكان للحرية، بالابتعاد  
عن الظنون التي يحركها المجتمع وأحكامنا المسبقة. هل  
يمكن إذاً تعريف فعل التّفلسف على أنه محاولة في  
التساؤل حول المعرفة في مواجهة الجهل؟ سندرس بعد  
ذلك نتائج التفكير الفلسفي على سلوكنا. يطرح هذا الأمر  
مشكلة القيم أمام الفساد. هل يُسهم التّفلسف في تعديل  
أفعالنا؟ أخيراً، في أزمنة المجتمع الفردي الذي تبدو  
فيه الأنظمة الفكرية مقسّمة ومميّزة، وأيضاً كل طبقة  
اجتماعية، وكل جيل من الأجيال، نتساءل إذا كان  
هنالك سن للتّفلسف.

هل يمكن للفلسفة أن تُسهم في المصالحة بيننا وبين  
الغير والعالم المعاصر؟ هكذا نزيح المشكلة من «لِمَ

التَّفَلُّسُفُ» إلى «مَتَى التَّفَلُّسُفُ»؟ وعليه، نُخَصِّصُ استدلالاتنا إلى إدراك المعنى أمام العبث والعُزلة. ربما نفهم أن أمام المصائب، الحكمة الفلسفية هي طريق نحو تحصيل السعادة.





## القسم الأول

التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ الْفِكْرِ



1

التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ الْفِكْرِ



## متابعة الدهشة

يبدو أن التّفلسف يتواقّت مع فعل التساؤل. كان ميلاد الفلسفة يتميّز بالفعل بالدهشة عند اليونان. لم تكن دهشة ساذجة ومغفّلة، بل كانت دهشة حدسية تُشجّع على الفضول الفكري وعلى التفكير والتأمّل. كان الأمر يتعلّق بالتساؤل حول الظواهر، والعمل على فهمها. إذا كانت الفلسفة ترتبط منذ البداية، في العصر القديم، بالشعائر وبالأسطورة، ومن ثمّ بنوع من الاعتقاد، فإنها انفكّت عن ذلك. تحرّرت من التّصوّر الشعبي للكون. غير أن سؤال أصل العالم كان حاضراً بقوة. لأن في المرّة التي وجد فيها البشر أنفسهم «ملقون» (jetés) في العالم، فإنهم تساءلوا ولا يزالوا يتساءلون بإصرار عن المكان الذي أتوا منه، ولماذا ثمّة كائن. يمكننا تمثيل هذا الانشغال الأولي بالعبارة الليبنتزية<sup>(1)</sup>: «لماذا ثمّة شيء بدلاً من

---

(1) غتفريد فلهلم ليبنتز (1646-1716)، فيلسوف ورياضي ألماني. عرض فلسفة نسقية وتساءل حول أصل العالم. بالصعود في سلسلة الأسباب أو العلل، استطاع الوصول إلى مبدأ العلة الكافية (الله) بوصفها السبب الأول لكل شيء. صيغته الشهيرة: «لماذا

لاشيء؟»<sup>(2)</sup>. باختصار، لماذا يوجد البشر، والأشياء، والعالم هنا؟ كان الانشغال الفلسفي الأولي يريد معرفة الطبيعة ومختلف مبادئها وفهمها. فهو يخصُّ العلة الأولى والتعليلية لكل شيء ويتساءل بشأنها.

غالباً ما ساعدت الآلهة والأساطير في فهم وتعليل وجودنا في العالم، هذه الأساطير التي يُحدِّدها مرتشيا إلياد<sup>(3)</sup> على أنها «تعبير معقّد ومتنوّع يقوم به الإنسان حول ذاته وحول الحقائق الغامضة التي يرتبط بها»<sup>(4)</sup>. كان هذا التصوُّر في الكون يُميِّز فكرنا القبلي. لكن سرعان ما حلَّ اللوغوس، أو بالأولى الخطاب العقلاني، محل الأسطورة ليُجعل مكاناً للتأويل الفيزيائي للكون وأغرق الفكر بدلالات وتمثُّلات وتجريدات. تشكَّلت على أثر ذلك شخصية الفيلسوف شيئاً فشيئاً، بالتخلي التدريجي عن الوظائف الباطنية والإعجازية ليُجسّد في ذاته الحكمة العقلانية. هكذا لجأ الفلاسفة السابقون على

---

ثمة شيء بدلاً من لاشيء؟»، تُجسّد إرادته في إدراك هذه العلة وبسط على أثرها فلسفته في رمّتها.

Leibniz, *Sur l'origine radicale des choses* § 4, Garnier-Flammarion. (2)

مرتشيا إلياد (1907-1986)، مؤرخ الأديان (3)

وروائي روماني.

M. Eliade, *Aspects du mythe*, Gallimard, Idées, Paris, 1963, p. 32. (4)

سقراط<sup>(5)</sup> إلى العناصر وامتضايفاتها، أي إلى المبادئ أو العلل (التراب، النار، الماء، الهواء، اللانهائي...) لتفسير «فوسيس» (phusis)، أي الطبيعة.

ما سُمي بـ«المعجزة اليونانية»، لم يكن من جرّاء استعمال العقل فحسب، بل كان كذلك عبارة عن تغيير في النموذج (paradigme)<sup>(6)</sup>، بتعويض النموذج الذي فرضه الاعتقاد بظهور خطاب فلسفي عقلاني، يبحث عن الحقيقة ويتميّز عن الخطاب الديني. لذا، وفي الأزمنة التي اكتسح فيها التلفاز المنازل، حاملاً معه نصيباً من تزييف المعلومة والرأي، وفي الوقت الذي اجتاح فيه الأنترنت حواسيب أطفالنا باسم شكلٍ جديد من التواصل السريع، أكثر اكتمالاً ويضع المعرفة في متناول الجميع، فمن العاجل استعمال العقل من أجل الحفاظ على

---

(5) الفلاسفة السابقون على سقراط هم فلاسفة يونان وُجدوا قبل سقراط أو كانوا معاصرين له. لقد حاولوا تعريف العالم وكيئونة الأشياء والطبيعة انطلاقاً من عنصر مكوّن: الماء، الهواء، النار، التراب، اللانهائي، إلخ. من أهم ممثليهم: طاليس، أناكسيمانس، أناكسيماندر، هيرقليطس، بارمنيدس، زينون، أناكساغوراس، إلخ. أسهموا في نشر الفكر الفلسفي في الحوض المتوسط. لكن للأسف لم تبق من أعمالهم سوى شذرات ومقتطفات. (6) تغيير في الموديل.

الحرية في التصرف. من الأجدى الابتعاد عن المعارف  
المزيّفة. لأن في الواقع، نحيا عصرًا «مذهلاً»، من شدّة  
«مفارقته» أنه أقصى في الهامش كل جهد عقلي وكل  
منطق. الرهانات الأكثر جنوناً هي في صدد الإتيان ونشهد  
نوعاً من المزايدة: السباق نحو التسلّح، العولمة،  
الرأسمالية العامة والمعّمة...

من جانب آخر، أسهمت التقنية بشكل كبير في  
تحسين حياتنا اليومية. بتخفيف أعباء هذه الحياة اليومية  
وتسهيلها، كان من واجب التقنية والأجهزة أو كان  
بإمكانها أن تتيح لنا استعمال الوقت الحر، بالتحرّر من  
النشاطات اليدوية الشاقة والمكرهة. لم يكن الأمر كذلك.  
لم يكن للإنسان الانطباع بأنه يجري مثلما عليه اليوم،  
وبأنه مُثقل بالعمل، وبأنه أصبح منتوجاً ذا مردودية. لقد  
استلب هذا الإنسان، ويُفوّت على نفسه فرصة الظفر  
بالأساس أو الجوهر. وفي المقابل، بشكل مفارق، ثمة  
تهاون استقرّ بين الناس. لقد دخلنا في عصر الانتهازية  
المعّمة. تقتضي الانتهازية الطاقة، والانتباه إلى الفرص  
المتاحة للظفر بها. لكن آجلاً أم عاجلاً، تنقص النباهة  
وأيضاً القوى الحيّة النشيطة، وإذا لم يكن بحوزتنا حل  
التعويض، إذا لم نتأهب مسبقاً، قد تؤدي الانتهازية في  
نهاية المطاف إلى الهشاشة والزوال.



من جهة أخرى، شهد عصرنا ظهور أوثان جديدة: المال، النجاح السهل والعابر، المظهر الخدّاع، الفجور (خصوصاً إذا كان «متلفزاً»)، والفساد! أصبحت الجدارة والاستحقاق، الشجاعة والإقدام، النزاهة والإخلاص، الجهد والعمل قيماً مندثرة، لأنها لا تتيح جمع أكثر عددٍ من المنافع والعوائد. لذا، فقدت من شهرتها. أصبح مهمّاً اليوم ومن أي وقت مضى، الاندهاش البسيط والحصيف بالأشياء. استعمال العقل من شأنه أن يهب الإنسان إمكانية عدم الانخراط في الأفكار الجاهزة والمهيأة له سلفاً. يتيح له هذا الأمر التمييز بين المعلومة الصائبة والمعلومة المزيفة، وإعادة تحديد خياراته وتوجيهها تبعاً لقيم جديدة، أكثر فضلاً وصلاًحاً.

أما الحكيم، فهو يأمل في الخروج من هذا المكان المشترك للظن (doxa)، للرأي الجمعي، وللفكر الساذج. يُكسبه هذا الأمر نظاماً خاصاً وهو أن يكون عاقلاً وقادراً على بلوغ الأمور العقلية. تكمن الدهشة في التساؤل حول الحقائق المزعومة لاختبارها، لمعرفة إذا كانت تقاوم امتحان الشك والنقد. تأتي حرية التفكير من إعادة النظر في الظنون. لأن هذه الأخيرة تكمن في إثبات سطحي وذاتي «للأفكار» الموضوعة والمتفق عليها. يُحضّر السلوك الفلسفي لحمل التفكير إلى جميع أشكال التجربة

الإنسانية، والانفصال عن نوع من الاصطناعية وهي التفكير العمومي. التّفلسف معناه قهر سُبّات المَلَكات والمحافظة على اليقظة.

يتوجّه الوعي نحو العالم، نحو المحسوس، لكن الحكم هو الذي يتيح له ملاء فراغات التجارب الحسية. إذا كانت المعرفة تبدأ بالإحساس، ينبغي تحليلها والحكم عليها بالفهم (entendement) لبلوغ بعد ذلك المفهوم الخالص، أي الفكرة التي يُشكّلها العقل. يتعلّق الأمر إذاً بالخروج من الكهف العزيز على أفلاطون<sup>(7)</sup>، ومغادرة عالم المظاهر والظنون للتأمل في الحقيقة. لأن الظن لا يقاوم طويلاً امتحان النقد. ينبغي إذاً العمل الشاق في التحقيق لإثبات مضامينه أو رفضها.

من جانب آخر، يُسهّل السلوك الفلسفي إيضاح

---

(7) أفلاطون (428-327 ق.م)، من عائلة أرستقراطية، كان شاهداً على أفول مدينة أثينا. تحصل على تربية أدبية حيث كان الشعر يشغل موقعاً مهماً، وكان موجّهاً في البداية نحو الفنون. لقاءه بسقراط هو الذي قلب حياته رأساً على عقب، ووجّهه نحو مهنة التفكير. قام بعدة أسفار، وأسس الأكاديمية، المكان الذي يتحصّل فيه الناس على تكوين فلسفي وسياسي وعلمي. ترك أعمالاً غزيرة، مرّجبة في معظمها من حوارات.

الكلمات بالوصول إلى تحديدٍ صارمٍ للمفاهيم. تكمن مشروعيتها في التقليل من أشكال سوء التفاهم، وتفادي الالتباس، وإعادة تأطير المحاور الصارمة للخطاب:

«أولئك الذي يجولون بأبصارهم في مختلف الأشياء الجميلة ولا يرون الجميل في ذاته، ولا يريدون متابعة الذي يسعى لقيادتهم إلى هذا التأمل، والذين يرون مختلف الأشياء العادلة ولا يرون العدل في ذاته، وإلى غير ذلك من الأمور؛ هؤلاء لهم ظنون في كل شيء ولا يعرفون شيئاً عن الأمور التي يُشكّلون حولها الظنون»<sup>(8)</sup>.

يدفعنا هذا الأمر إلى قيادة التفكير حول الحقيقة. بحكم أن التماس الصرامة يكمن في اختزال هذه العلاقة أو الفارق بين ما يُقال أو ما يُفكّر فيه (بارتكاب الخطأ أحياناً) بالمقارنة مع الحقيقة. وعليه، فإن الدقّة المفهومية ملحّة في هذا السياق، لأن في الفلسفة كل شيء هو مسألة تعريف.

---

Platon, *La République*, L. V, 479b-480a.

(8)

## الدهشة والبحث عن الحقيقة

تبعاً للاشتقاق، يمكن فهم الحقيقة من طريقتين:  
1. إنها تتعلّق بما هو مطابق للحقيقي (*veritas*)؛  
2. تتحدّد بكونها حصيلة بحث (*alètheia*). معنى ذلك أنها تنكشف تدريجياً بمقدار ما نبحث عن الكائن المتواري. يتعلّق الأمر بالبحث عن الواقع من أجل الوصول إلى فهم الأشياء بالتدرّج، وفهم ما يحيط بنا. في جهده في العقلنة، يحاول الفكر معاينة الظواهر المتعددة.

يتوجّب التنبيه على مسألة. هذا يعني بلا ريب أن العالم يمكنه أن يتجلّى لنا بشكلٍ ما، لكن علينا أن نبادر بالبحث للوصول إلى ماهيته الحقيقية. هكذا ينبغي مجاوزة المظهر لبلوغ الكائن. ويشهد هذا الأمر على تعقّد فعل المعرفة. ما يهمُّ إذاً هو تفادي الافتتان بمظهر البساطة التي يمكنها أن تُضللّ الفكر الكسول المستعجل في التخلّص من فعل التفكير. وعليه، تحت البساطة الجليّة يقع تعقيدٌ كبير. لأوضّح ما أرمي إليه، يبدو لي أن مثلاً يفرض نفسه: صحيح أن عندما نلاحظ نجادة (مثل نجادة

أوبيسون<sup>(9)</sup>، فإننا نرى بعين الإعجاب صورة لها معنى: سيّدة أحادية القرن. لكن في الواقع، إذا استندنا إلى ورق المقوّى (أو الرسم) وقمنا بقلب النجادة، فإننا نلاحظ مجموعة من الخيوط المتشابكة: يتوفّر أمام أعيننا مُرْكَب كبير ومُعَقَّد، مشكلة التشابك بين الوجه والقفا، صعبة الفهم. يدعوننا هذا الأمر إلى تبني طريقة هيرمينوطيقية<sup>(10)</sup>، أي التأويل واستخلاص المعنى. يكمن هذا السلوك الفكري في استجلاء المعنى الباطن من المعنى الظاهر. يتطلّب التأويل إذاً مجاوزة المعيش البسيط، الظواهر، لبلوغ الأشياء في ذاتها. كما يؤكد بول ريكور<sup>(11)</sup>: «عندما نؤوّل فإننا نفهم؛ وعليه فإن في

(9) مع أن أصول السيّدة وحيدة القرن (la Dame à la Licorne) ليست من أوبيسون (Aubusson). يتعلق الأمر، في الحقيقة، بنجادة الفلندر (les Flandres). لكن أطمح إلى أخذ مثال يعرفه كل الناس، وغالباً ما كانت السيّدة وحيدة القرن تقترن بمدينة أوبيسون.

(10) الهيرمينوطيقا (Herméneutique) أو «هيرمينيا» (hermeneia) تعني التأويل. ينحدر هذا الاسم من هرمس، شخصية بينية، رمز الوساطة بين الآلهة والبشر.

(11) بول ريكور (1931-2005)، فيلسوف فرنسي، أستاذ في السوربون، في نانثير ثم في الولايات المتحدة الأميركية حيث أسس الفلسفة التأويلية.

الهيرمينوطيقا ينعقد عطاء المعنى بالرمز والمبادرة العقلية في الاستجلاء»<sup>(12)</sup>.

من واجبنا الصعود في سلسلة العلل من أجل بلوغ العلل الأولى، المبدأ الأول لكل شيء. ما يهمُّ هو فك خيوط التعقيد، كما بيّنه المثال المشار إليه من قبل، من أجل إدراك مجموع القوانين التي تُدبّر الكون. فالتبعثر الظاهر والأصلي يُجسّد جوهر الواقع حيث يقوم الفكر باستخلاص النظام والانسجام. يُدرك الفكر في هذا الكون المتحرك شكلاً من التنظيم. فهو يستخلص الترتيب في العلاقات ويقوم بفك شيفرته. باختصار، كلما ابتعدنا زمنياً ومكانياً عن نقطة البداية، زادت رغبتنا في معرفة السبب. نرغب إذاً في معرفة العلة الأولى والكافية لكل شيء. لأن ما يثير دهشتنا، هو التغيّر بما يحتمله من أمور محيرة، بوصفه قطعة مع عاداتنا. يكمن البحث عن الأساس الأول، عن نقطة الرسوخ، في معاينة وجود الأشياء والتفكير في المبدأ الأول الذي تُستنبط منه هذه الأشياء. كيف ظهر النظام عن التبعثر الأول؟ من شأن هذا التعليل، الإله بالنسبة للبعض (أرسطو<sup>(13)</sup>) على وجه

---

Ricœur, *Philosophie de la volonté, Finitude et culpabilité*, II. La symbolique du mal. Conclusion. (12)

(13) أرسطو المكنّى بالإسطجري (384-322 ق.م)، ابن طيب

(الخصوص)، الفكرة بالنسبة للبعض الآخر (أفلاطون) أو أيضاً الذرة (حسب ديمقريطس<sup>(14)</sup>)، أن يُظْمِن، لأنه يوفّر المعنى لحضورنا في العالم.

وإن كنا نهوى العيش وسط أشياء متحوّلة، فإننا نبحث عن الدلالة عبر الانتظام والثبوت الوجداني. لسنا في الحقيقة مرتاحين سوى في حقل العادة، وهذا ما يوجد ويدوم في العابر. لأن العقل الأول يُضفي المعنى ويُعبّر عنه في تجلّيات مفاعيله. من جهة أخرى، بحكم أن السفسطة الذائعة تنشر جملة من الظنون وتُحرك «الحقائق المزيفة»، لا ينبغي القبول بها كما هي. هذا يُفسّر لماذا ينبغي فهم التّفلسف بطريقتين: البحث عن العلل الأولى، وإبطال الخطأ، أي البحث عن الحقيقة.

---

وتلميذ أفلاطون. أسس المدرسة المشائية (التفلسف مشياً على الأقدام). تتوزع أعماله على أربعة أقسام: المنطق، الفيزياء، الميتافيزيقا والأخلاق العملية. يرى أن الإله هو المحرك الأول لكل شيء، وهو الذي حرّك إذاً الخلق بأجمعه.

(14) ديمقريطس (460-370 ق.م)، يرى بأن الطبيعة مركبة من ذرات متحركة تنتج عن توليفها الأجساد المتنوعة. تحتفي وراء الظواهر الجزيئات غير المرئية بالعين المجردة. لذا، يُعدّ ديمقريطس من رواد الذرية الحدسية ذات عبقرية تامة!

## الدهشة والفضول الفكري

نفهم إذاً ضرورة إجراء تحوُّل في النظر. سعيدٌ من لا ينظر في الاتجاه نفسه، من يتحوَّل بنظره عن الرؤية العامة؛ من يُحسن إحباط الوهم ويبادر في البحث دون معرفة ما سيجده لاحقاً، لكنه يتوجَّه نحو الظفر بالمعرفة. إنه يمتلك طراوة في الفكر وحيوية تؤهِّله للازدهار العقلي. يتشيدُّ فكره بمقدار استثماره للمعرفة بطريقة دينامية. كان شوبنهاور<sup>(15)</sup> يحب قول هذا الشيء:

«تولد الفلسفة من دهشتنا أمام العالم ومن وجودنا، الذي يفرض نفسه أمام عقلنا بوصفه لغزاً يجعل الإنسان مشغولاً بالبحث عن حلول له»<sup>(16)</sup>.

---

(15) آرثر شوبنهاور (1788-1860)، فيلسوف ألماني، مؤسس فلسفة «الإرادة» بوصفها أصل كل تمثُّل. تشاؤمه الذي يجمع بين مفاهيم الألم والحياة، أدى به إلى فلسفة في الزهد. استوحى تصوره حول إرادة الحياة من فلاسفة الهند.

(16) Schopenhauer, *Le monde comme volonté et comme représentation*, suppléments au Livre I, t. 2, p. 304, Alcan.



يُجسّد هذا الفضول الفكري شباباً حقيقياً للفكر. إنها طفولة الإنسان الذي ينتبه ويتساءل بمرح ويذهب إلى حد التساؤل حول السؤال نفسه. فهو يرى ويلمس ويستنشق العالم كما لو كان حديقة اكتشافات. ترمز هذه اللحظة إلى فضول بسيط وسارّ، وتشير إلى أصالة الوعي. تُفتقد هذه الأصالة بمقدار تعزّز الاصطناعية والفردانية وانتشارهما السريع في مجتمعاتنا اليوم، وترفعان بذلك تكييفنا.

على الخلاف من اللامبالاة التي تجعل منا كائنات معزولة عن الجديد، وعلامة على عدم الاهتمام، الدهشة هي الإصابة بالذهول والقُدرة على أن تُفاجأ. تقودنا الدهشة نحو الشكوك، نحو ما يُذهل ويُزعج فكرنا من أجل تفضيل سلوك فكري نقدي. تدل الدهشة على سلوك من التساؤلات يستطلع بها الوعي العالم. ما كان بديهياً بدا الآن موضع شك. الشخص الذي يتساءل هو الشخص الذي يعي بجهله، ويُشكّل هذا الأمر عتبة أولية نحو طريق المعرفة. فقط لأن الشخص الذي لا يعرف بأنه يجهل أشياء، لا يسعى إلى التحرُّر من هذا القيد. كما يُفسّر أرسطو المسألة: «الدهشة هي التي دفعت المفكرين الأوائل، مثل اليوم، إلى التأمّلات الفلسفية»<sup>(17)</sup>؛ لأن

موضوعها هو الظاهرة التي تفاجئنا وتدعونا إلى التفكير في «لماذا الأمور هي هكذا؟».

لا يهم الأمر الذي يدفعنا إلى البحث: قراءة كتاب، اللقاء بمعلّم، حدث خاص؛ التساؤل هو المشاركة في يقظة الفكر. تكمن الدهشة في التفكير في أن كل شيء لم يتم قوله بعد، وأن التغيير ممكن دائماً وأنه ينبغي السلوك من طريق آخر. وعليه، تدفع الفلسفة إلى سلوك فكري في البحث، وإلى الفحص النقدي لما يُعتقد بأنه يقيني للتقدّم تدريجياً نحو المعرفة والحقيقة:

«الحصول على الفكر الفلسفي هو القدرة على الاندهاش من الوقائع العادية وأشياء الحياة اليومية، بأن يُطرح موضوعاً للبحث والنقاش ما هو عام واعتيادي»<sup>(18)</sup>

بدلاً من اختزال الاختلافات وإرجاعها إلى مبدأ واحد، بجعل تجاربنا ساذجة، فمن الأجدى التوقّف مطوّلاً عند الأشياء، باستخلاص خصوصياتها، ومساءلة الظواهر. انطلاقاً من الطابع المتنوّع والخاص للأشياء

---

Schopenhauer, *Le monde comme volonté et comme représentation*, (18) suppléments au livre 1, t. 2, p. 294, Alcan.

التي نلاحظها، يمكن أن نبلغ درجة من الفهم الكوني.

الشخص الذي يتساءل يمكنه أن يتفادى الخطأ أو يخرج عن الإدراك المشترك ليلعب درجة أخرى من الفهم. كما أكد باشلار<sup>(19)</sup> على ذلك «لا وجود لحقيقة دون خطأ يُصَحَّح»<sup>(20)</sup>. بهذا المعنى يمكن أن نستحضر جدل الفكر. من يندهش من الأشياء، فهو في طريق التقدُّم، يسلك [السبيل]. عندما يتحسَّن فإن الوعي لا يتوقَّف عن الانتباه. الدهشة هي أصل كل فعل في التَّفلسف، وتصبح ذات منفعة جوهرية للفكر. فقط من يبقى في عِزلة اليقين والأحكام المسبقة وروتينية الكسل الفكري<sup>(21)</sup>، عن خضوع أم عن عادة، يفقد علَّة وجوده: أن يكون كائناً موهوب العقل. مكتبة سُر من قرأ

---

(19) غاستون باشلار (1884-1962)، فيلسوف فرنسي، اهتم قبل كل شيء بالعلوم قبل أن يتوجه نحو الفلسفة. يطرح فكرة تفتت كل نسق عندما يكشف الغنى اللانهائي للتجربة عن وقائع جديدة.

(20) Bachelard, *La formation de l'esprit scientifique: contribution à une psychanalyse de la connaissance objective*, p. 239, Vrin.

(21) Comme le précise Leibniz dans ses *Essais de Théodicée*, préface, p. 30, Garnier-Flammarion.

ليبتنز: «من كل مكان وزمان، انزعج الناس من سفسطة سماها الأوائل العقل الكسول، لأنه لا يفعل شيئاً ولا يعتني بشيء، ولا يفعل سوى اتباع ميول الرغبات الآنية».



2

في الاستعمال السديد للعقل



## الإنسان: حيوان عاقل

يفتح ديكارت<sup>(22)</sup> «مقالة في المنهج» بهذا الإقرار:

«العقل هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس (بالتساوي) إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شيء غيره، ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم منه، وليس براجع أن يخطئ الجميع في ذلك، بل الراجع أن يشهد هذا بأن قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وهي في الحقيقة تسمى بالعقل أو النطق، تتساوى بين كل الناس بالفطرة [...] لأنه لا يكفي أن

---

(22) رنيه ديكارت (1596-1650)، فيلسوف فرنسي، كان مشدوهاً إلى مهنة عسكرية. قضى فترة طويلة من حياته في هولاندا، للفرار من الاضطهاد الكنسي. يُعدُّ رمز الروح الفرنسية وأب الديكارتية. فرض فكرة أن كل فرد يفكر بذاته وأنه صاحب أفكاره. تتأسس عقلانيته على مبدأ أن كل فكر يسلك منهجاً سليماً يمكنه أن يبلغ معرفة الحقيقة.

يكون للمرء عقل، بل المهم هو أن يحسن استخدامه»<sup>(23)</sup>.

كل إنسان يملك عقلاً، لكن لا يُحسن استعماله دائماً. إما لأنه لا يُفكّر كما ينبغي أن يُفكّر، وإما لأنه لا يُطبّق فكره على الأشياء بشكل صحيح. بتعبير آخر: يغلط ويرتكب الأخطاء. مع أن ملكة التمييز هي خاصية الإنسان. طرح أرسطو في زمانه ثلاث درجات من النفس تناسب الخصائص المكتملة فيها:

- النفس النباتية هي نفس أولية تكمن خاصيتها في النشاط الحيوي الذي يتيح النمو والازدهار.
- النفس الحيوانية لها الخصائص نفسها التي تتمتع بها النفس النباتية، لكن تنفرد بخاصية الحركة. يمكن للحيوان إذاً أن يولد وينمو ويتنقل.
- النفس البشرية تتجاوز من حيث الاكتمال النفسين

---

(23) Descartes, *Discours de la méthode*, première partie, Garnier-Flammarion.

اعتمدنا على الترجمة العربية التالية: رنيه ديكارت، مقالة عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيرى، مراجعة وتقديم محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص 160-161. (المترجم).



(النباتية والحيوانية)، لأنها نفس عاقلة. مما يدل على أن بين الحيوان والإنسان لا يوجد فرق في الطبيعة، بل اختلاف في الدرجة.

وعليه، في الأصل، تكمن النفس (anima) في مبدأ محايث ومحرك للجسد. يتحدّد هذا الأخير ويتحرّك تبعاً لدرجة الكمال في النفس. من جانب آخر، وإن كان الإنسان الخليقة الأكثر اكتمالاً من بين كل الخلائق (لأنه يتمتّع بالعقل)، فهو، رغم ذلك، مختومٌ عليه بالتّحديد الميتافيزيقي. يُجسّد الجسم ما يضع حدوداً للفرد، لأن هذا الأخير ليس مجردّ نفس خالصة. لا يمكنه من ثمة أن يساوي الكمال الإلهي، كمال الكائن الأول الذي صدر عنه كل شيء. هكذا يستلهم ديكارت هذه الفكرة عن أرسطو.

دون تصنيف متعجرف للإنسان على أنه الأعلى والأرقى من بين كل المخلوقات، ينبغي أن نعترف بأن العقل يرفعه إلى مستوى الكائنات المكتملة:

«امتلاك "أنا" (Je, Ich) أمام العرض: ترفع هذه القدرة الإنسان إلى أعلى الكائنات الموجودة على الأرض. يصبح من جرّاء ذلك شخصاً؛ وبفضل وحدة الوعي أمام كل التغيّرات التي يمكن أن

تطراً عليه، فهو الشخص نفسه وبعينه، أي كائن مختلف تماماً بالدرجة والرتبة عن الأشياء مثلما عليه الحيوانات العجماء القابلة للاستغلال؛ وهذا حتى عندما لا يستطيع أن يقول "أنا"، لأنها في ذهنه؛ وعليه فإن على كل اللغات، عندما تتحدث بضمير المتكلم، أن تفكر في هذا "الأنا"، وإن كانت لا تعبر عنه بكلمة خاصة. لأن هذه الملكة (في التفكير) هي الفهم. يُشار إلى أن الطفل الذي يبدأ في التكلّم بشكل صحيح، لا يقول "أنا" سوى في وقت متأخر (ربما سنة بعد التكلّم)؛ قبل ذلك، يتحدّث عن نفسه بضمير المخاطب (يريد شارل أن يأكل، أن يمشي، إلخ)؛ ويبدو بالنسبة إليه أن نوراً يبرز عندما يبدأ في قول "أنا": انطلاقاً من هذه اللحظة، لا يعود أبداً إلى الطريقة الأخرى في التكلّم. قبل ذلك كان يستشعر فقط؛ الآن يُفكر بنفسه»<sup>(24)</sup>.

وعليه، بحكم أن الإنسان يتمتّع بالعقل، عليه أن يستعمله، وأن يُحسن استخدامه. فمن العبث السلوك بطريقة غريزية وسخيفة ومخالفة للصواب، بينما نتمتّع

---

Kant, *Anthropologie du point de vue pragmatique*, trad. M. Foucault, Librairie philosophique J. Vrin, 1984, p.17. (24)

بملكة التفكير والفعل المتعقل. التنكر للعقل، للذكاء، هو بوجه ما، التنكر للذات. كذلك، أولئك الذين يمقتون الفلسفة بذريعة أنها مادة «تُسبب الملل والضجر»<sup>(25)</sup>، أقول لهم بأن عليهم أن يحترسوا من «بُغض العقل» (misologie)<sup>(26)</sup>، والحق على كل تفكير.

رفض التفكير والإرهاق هما في نظري شبيهان بالاستلاب. إذا أراد الإنسان أن يكون حُرًا، عليه أن يتعلّم التفكير وأن يتثقف من أجل الظفر باستقلاليتته. يمكن للفكر وقتها أن يتحرّر.

## مكتبة

t.me/soramnqraa

(25) حرفيًا بالفرنسية «Se prendre la tête» أي إعياء الذهن، ويُقال في العامية أيضًا «تكسار الرأس»، بمعنى تهشيم الذهن. تدل الفكرة على أن الكسل عدو الفكر، لأن الفكر يدعو إلى التخمين والتفكير بالذات، بينما الغالبية تميل إلى الكسل وتترك أشخاصاً يفكرون في مكانها (نخبة ثقافية أو سياسية أو دينية)، كما أشار ذلك كانط في بداية رسالة «ماهي الأنوار؟» (1784). (المترجم).

(26) يطرح أفلاطون المسألة في محاوراة «فيدون» (89a-89e):

«- لنحترس قبل كل شيء من خطر داهم.

- قلت له: ما هو؟

- أجابني: أن نكون أعداء العقل، مثلما نكون أعداء البشر؛ لأن لا شيء سيء يقع للإنسان سوى أن يمقت الاستدلالات العقلية».

[يقول هيغل]:

«من الضروري جعل الفلسفة مسألة جادة. بالنسبة لكل العلوم والفنون والمواهب والتقنيات، تغلب القناعة بأنه لا يمكن امتلاكها دون عناء وجهد لتعلّمها وممارستها [...] يغلب في عصرنا اليوم الحكم المسبق بأن كل واحد يستطيع التّفلسف وتقدير الفلسفة، لأنه يملك الميزان الضروري في عقله الطبيعي [...] لا تُكتسب الأفكار الحقّة والبصيرة العلمية سوى بعمل المفهوم. المفهوم وحده من شأنه أن يُنتج عالمية المعرفة»<sup>(27)</sup>.

تكمّن الفلسفة أيضاً في الاستعداد الفكري لقراءة القدماء واستعمال بوتقة الفلاسفة لتكوين عقلك. لا يمكن للعقل إذاً أن يستغني عن الإحالة إلى القدماء الذين يستند إليهم، سواء أكان على سبيل الاستمرارية أم على صعيد الرفض والنقد. لكن ليست الفلسفة علماً فجاً وثابتاً. فهي تقتضي التفكير الدينامي وأن تُفكّر بذاتك لتُحسن ربط الأفكار في ما بينها والابتعاد عن الذي تمّ التفكير فيه من أجل إبداع طريقة جديدة في التفكير. يتبدّى جوهر

---

Hegel, *Phénoménologie de l'esprit*, Préface, p. 73-74, Aubier.

(27)

المسألة في المنهج الذي يتيح التنسيق الصحيح والسهل بين الأفكار. يتعلّق الأمر كذلك بالاعتراف بالحدود من أجل تجاوزها. إذا كان الجميع يتمتّع بالعقل، فإن كل واحد حرٌّ في اختيار الاستعمال الملائم للعقل.

يقوم العقل إذاً على القُدرة الخاصة في تقديم العالم الخارجي أمامنا مفهوماً، وبإعادة استحضاره (re-présenter) أو تمثُّله. فهو يدل على نشاطٍ في التركيب ومهمة في التفكير. إنه يسمح بالحكم على الحق والباطل بالتمييز بينهما. يبقى العقل ملكة توحيدية<sup>(28)</sup>. في الأخير، يتطلّب التّفلسف اقتناء ثقافة عامة وفلسفية، وفضول الفكر. تفتح من جرّاء ذلك الحقول الممكنة للبحث لمن يسعى إلى استثمارها بكدّ واجتهاد. تهتمّ الفلسفة بالعلم دون أن تخضع له، وتُسائل التاريخ أيضاً، والسياسة والجمال. حقول بحثها واسعة ومتعدّدة، ولا يمكن أن نُعيّن لها غاية نهائية، لأن في ذلك بترّاً وتشويهاً لها. نتّفق إذاً على أن مركز اهتمامها هو الإنسان وكل ما

---

(28) تقصد أن العقل من شأنه أن يوحد بين مختلف الانطباعات في المفهوم الخالص، ويوحد مختلف الملكات في إدراك بعينه. أحسن من هندس لذلك هو إيمانويل كانط في نظرية في المعرفة دقيقة وصارمة. (المترجم).

يخصُّه ويتعلَّق به. لا يمكن تصوُّر إنسانٍ يتخلَّى عن  
التساؤل حول ذاته ومكانه في العالم ومسؤولياته تجاه  
الغير والبيئة، إلخ. إذا كان العقل وسيلة رائعة يخرج بها  
الإنسان من الحالة الحيوانية، عليه أن يتعلَّم كيف  
يستعملها.

## الشك وإدراك الفكر لذاته

يرتكز التّفلسف على تدربّ أساس، على عمل نقدي للفكر. لا تُشكّل الدهشة الاستعداد الفكري الوحيد الذي يفتح على التفكير والتأمّل. لفهم ذلك، لننظر مثلاً في الفلسفة الديكارتية.

لقد أحدث ديكارت منعرجاً حاسماً في تاريخ الفلسفة. فهو يُشجّع على طريقة جديدة في التفكير، وعلى تغيير في المنهج. صحيح أنه، مثل القدماء، يطرح في أصل تفكيره البحث عن الحقيقة. لكن في أصل مسعاه، ينبغي وضع الشك. لا يتعلّق الأمر بشكّ مرتاب<sup>(29)</sup> يرفض كل القناعات، لكن بشكّ نقدي بوصفه إعادة النظر في الاعتقادات والقناعات الموروثة أو المكتسبة، بتعليق الحكم مؤقتاً. يتعلّق الأمر إذاً بالتخلّي عن الأمور التي نشكّ فيها، أي الأشياء التي يقع عليها الشك:

---

(29) الشكية هي مذهب يرفض إثبات أي شيء. يمكن أن نقول بأن الشكوكي من يرفض انخراطه في أي اعتقاد. فهو يكتفي بالملاحظة دون الحكم. يتميّز موقفه بتعليق الحكم.

«تبيّن لي، منذ حين، أنني تلقيتُ -إذ كنتُ ناعم الأظفار- طائفة من الآراء الخاطئة، ظننتها صحيحة، ثم وضح لي أن ما نبنيه بعد ذلك على مبادئ، تلك حالها من الاضطراب، لا يمكن أن يكون إلا أمراً يُشكُّ فيه كثيراً، ويُرتاب منه. لهذا قرّرتُ أن أحرّر نفسي جدّياً، مرّة في حياتي، من جميع الآراء التي آمنتُ بها قبلاً، وأن أبتدئ الأشياء من أسس جديدة، إذا كنتُ أريد أن أقيم في العلوم قواعد وطيدة، ثابتة، مستقرّة»<sup>(30)</sup>.

يُثبت ديكارت أن فكرنا يتلقّى في زمن الطفولة<sup>(31)</sup>

(30) Descartes, *Méditations métaphysiques*, Première Méditation : des choses que l'on peut révoquer en doute, p. 67, Garnier-Flammarion.

اعتمدنا على الترجمة العربية التالية: رنيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة كمال الحاج، منشورات عويدات، باريس-بيروت، ط4، 1988، سلسلة «زدني علماً»، ص23: التأمّل الأول: في الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك. (المترجم).

(31) «بحكم أننا كُنّا أطفالاً قبل أن نكون راشدين، وقمنا بالحكم على الأشياء التي تلقّتها حواسنا قبل أن نستعمل عقلنا كليّةً، تارةً خيراً وتارةً أخرى شراً، ثمة العديد من الأحكام السريعة التي تحوّل دون وصولنا إلى معرفة الحقيقة، وتدفعنا لتدارك فكرة أن المظاهر



وبشكل منفعل مجموعة من المعارف. يتقبلها ببساطة دون أن يتحقق من مصدرها ومن أسسها المبدئية. ينخرط دون أن يُشغّل فكره النقدي ويُسلم بكل ما يُنقل إليه من أسياده<sup>(32)</sup> أو من حواسه. إذا كان وعي الطفولة الفضولية يُميّز اليقظة، يمكنه أن يكون كذلك موضوع تلاعبات. يقترح ديكارت إعادة النظر في جُملة المعارف والمكاسب، من أجل مَحْوِها كَلِيَّةً (tabula rasa). يسعى إلى بناء معرفة على أُسُسٍ صلبة. لنا الخيار بعد ذلك في اختبار معارفنا الواحدة تلو الأخرى وعدم المصادقة بعد التحقق سوى على البديهية منها، وإعادة بناء صرحنا المعرفي.

على العكس من العصور القديمة التي كانت تتميز بالحوار والتبادل، ينصح ديكارت بالانزواء على الذات. يُحبذ الصمت والتأمل وسائلَ لبلوغ المعرفة عبر

---

لا يمكننا التخلص منها إذا لم نبادر إلى الشك، مرة في حياتنا على الأقل حول كل الأشياء التي نستشعر فيها أدنى ارتياب». *Œuvres philosophiques*, t. 3, Les principes de la philosophie, première partie, Des principes de la connaissance humaine, §1, p. 91, F. Alquié, Classiques Garnier, Bordas.

(32) يمكن تأويل الأسياد هنا (les maîtres) على أنهم التراث أو السيادة عموماً (autorité). (المترجم).

الاستبطان والتفتيش. يصف تجربة التأمل بهذه العبارات:

«كنتُ إذ ذاك في ألمانيا، عندما استدعتني الحروب التي لم تنته فيها بعد، ولما كنتُ في عودتي من تنويج الامبراطور إلى الجيش، ألجأني برد الشتاء إلى قرية، ولم أجد فيها شيئاً من السمر ملهياً. على أنه لم يكن عندي، لحسن الحظ، ما يقلقني من همٍّ أو هوى، وكنتُ ألبث اليوم كله وحدي في حجرة دافئة، حيث كانت لي كل الفرصة لتوجيه همّتي للفكر»<sup>(33)</sup>.

يُشجّع التأمل على تحويل الذات حيث تكمن الفضيلة الأولى في إرساء قطيعة مع الطفولة، الملائمة لكل التلاعبات الفكرية. يُجنّد الفكر منهجياً ملكاته ويبحث ويُركّب بعد ذلك تفكيره لجعله ناجعاً وفعالاً.

لكن، عندما يأتي وقت الشك ويُدفع إلى درجاته القصوى، يُثبت ديكارت بزوغ يقين متين: وجود الفكر الفاعل. وعليه، وإن كنتُ أشكُّ، ثمة تفكير يشتغل دائماً في فعل الشك، «أسمع نفسي» وأنا أفكر. ومن ثمة، «أنا أفكر، إذاً أنا موجودٌ» أو الكوجيتو هو أساس كل معرفة.

Descartes, *Discours de la méthode*, deuxième partie.

(33)

يُثبت الحضور النبیه لذات الحقيقة. يُبرز كذلك اشتغال الفكر الحر الذي يصرف نظره عن الأحكام المسبقة وعن أخطائه الأولى ليتصوّر بجلاء ووضوح ما هو حقيقي. بعد ذلك، تُسخر الذات استدالاتها وتتمرّن وتنخرط في السلوك العقلاني بالانصراف عن الخطأ وعن الحساسية النسبية والمضلّلة.

هذا الإثبات في الكوجيتو غير ممكن سوى بالنسبة لمن يبادر في التفكير، لمن ينقطع إلى رياضة الفكر. تتصوّر الذات بأنه يدل على جُملة من الملكات التي يُركّب بينها في إثبات «الأنا»: يشكُّ، يتصوّر، يتخيّل. بالرغم من هذا التعدّد في الاستعدادات، تمتلك الذات الشعور بهويتها وبوحدتها. بوجود الكوجيتو تُطرح مسألة ديمومة الذات. يُصبح الأنا مركز المبادرات والعلاقات والتركيز. ومن الأجدى التّفلسف أيضاً للظفر بالحرية الفكرية. لأن الإنسان يضحى بذلك قُطب النشاطات العملية.

لا يمكنني بالطبع أن أمارس تجربة الفكر الفاعل ما لم أفكر بنفسني. كما لا يمكنني أن أفكر في مكان شخص آخر. لذا، لا يتحدّث ديكارت عن الغير، مُتبنيّاً موقفاً أوّلياً شبه «أناوحدني» (solipsiste): «عندما أنظر من النافذة، لا أرى سوى معاطف وقبّعات». يتميّز الإنسان

بكونه جوهرًا مُفكّرًا، له القدرة على إدراك ذاته فكراً وحضوراً لهذا الفكر. يبقى العقل الشيء الوحيد الذي يُميّز الإنسان عن الحيوان، لأنه يتيح التمييز بين الحقيقي والزائف والتخلُّص من الفكر الغريزي. فهو طاقة في الحكم، يتيح الوعي بإمكانية إرساء التمايزات وإبطال الأخطاء. فهو يستبعد إذاً الحُمق. انطلاقاً من هذا اليقين الأول، يُؤسّس ديكارت صرح معرفته:

«في سحبه للكرة الأرضية من مكانها ونقلها إلى مكان آخر، لم يطالب أرخميدس سوى بوجود بؤرة ثابتة ومضمونة»<sup>(34)</sup>.

تُجسّد هذه اللحظة نوعاً من عصر العقل. فهي تناسب تملُّك الأنا. يتعلّق الأمر بالنظر في الذات لإيجاد الجوهر الباطني لما نحن عليه بالذات، إنسانيتنا، مثلما أوحى به هاتف الدّلف (l'oracle de Delphes) في زمانه: «اعرّف نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ». يدعو هذا الإدراك للوعي لذاته بعد شكوك ممحصّة إلى التنظيم. يتبنّى الفكر إذاً منهجاً من شأنه أن يُرتّب سلسلة التعليقات ويُصبح بذلك

---

(34) Descartes, *Méditations métaphysiques*, méditation seconde. De la nature de l'esprit humain ; et qu'il est plus aisé à connaître que le corps, p. 79, Garnier-Flammarion.

صارماً. إنها اللَّحظة التي نغادر فيها مراحل الطفولة والمراهقة، حاملين التناقضات، من أجل بلوغ الرُّشد العقلي، أي الحكمة. يمكن إدراك هذه الأخيرة على أنها حُرِّيَّة؛ لأن التَّفلسُف هو تعلُّم التفكير، هو أن تكون حُرًّا في خياراتك، أن تكون مستقلاً. يتطلَّب ذلك مباشرة جُهد التفكير:

«لا يمكن أن نتعلَّم أيَّة فلسفة لحد الآن [...] ما نتعلَّمه هو فقط التَّفلسُف، أي ممارسة مهارة العقل في تطبيق مبادئه العامة على بعض المحاولات التي تطرأ، لكن دائماً بالتحفُّظ الذي يمتلكه العقل في البحث عن هذه المبادئ بالذات في أصولها، بإثباتها أو رفضها»<sup>(35)</sup>.

يتوصَّل الإنسان الفطن، الذي يُحسن استعمال التأمل والمنهج، إلى قيادة تفكيره. فهو يتمتَّع بقدرٍ كافٍ من الموضوعية ليطمأن مع آرائه. يظفر بهذا المعنى بحُرِّيَّته. هكذا يتيح له الوعي اليقظ والصارم من الخروج من التَّعامي الأول، من أجل إنتاج تعليقات وثيقة. يمكن

---

Kant, *Critique de la raison pure*. «Théorie transcendantale de la (35) méthode», chap. 3, p. 561, PUF.

للإنسان أن يتماسف مع الأحكام المسبقة ليفكر بهدوء. يمنح الكائن المفكر لذاته إمكانية الإفلات من الغموض لأجل بلوغ الجوهرى. تتيح له العقلانية بأن يكون واثقاً من نفسه ومسؤولاً عن خياراته. هكذا يمكن للإنسان، وبناءً على الاستعداد السليم في التمييز بين الحقيقي والمزيف وعلى الربط بين الأفكار، أن يتوصل بالمعرفة. هذا ما تدلُّ عليه المفردة العقل، من اللاتينية *intelligere*، وهي ملكة التمييز التي تعمل على الربط بين البراهين. يتطلب الأمر استعمالاً سديداً للعقل من أجل التوجُّه في المعرفة بشكل لائق.

3

التَّفَلُّسُفُ من أجل بلوغ المعرفة





## محبّة الحكمة

لقد رأينا بأن التّفلسف يكمن في الاستعداد الفكري الخاص. كما يدلُّ عليه الاشتقاق لكلمة philosophia من الفعل philein وهو المحبة، والاسم sophia الذي يعني الحكمة، الفلسفة هي محبّة الحكمة. يدعونا هذا الحُب إلى الاندفاع نحوها، إلى أن نكون حكماء. ينبغي أخذ هذه الحكمة تملُّكًا لمعرفةٍ ما، وتخصُّص من ثمَّ الكائن العاقل. هذا يعني أن الفيلسوف هو صديق الحكمة وبيذل الجهد في حيازتها.

كيف تُدرَك هذه الحكمة؟

- تميّز من الوجهة النظرية بالمعرفة والعلم والبحث عن الحقيقة.
- تحيل من الوجهة العملية إلى سلوك الحكيم، المعتدل والرّزين.

يدل الفيلسوف على الشخص الذي بحوزته المعرفة ويُحسن ضبط نفسه في كل الأحوال. يستعمل فكره ليتصرّف بصواب وكشخص خيّر. لأن التجربة دلّت على

صعوبة التصرّف دون فهم المغزى من ذلك، أو دون البحث عن وحدة القيم. يُحب الحكيم القيم: الحق، الجميل، العادل، الاعتدال، الخير. يعمل جاهداً على الاقتراب من هذه القيم ليُكمّل ذاته. يتميّز كذلك بفكر شغوف ودينامي ومجتهد. لكي يصل إلى هذا المقام، عليه مبدئياً أن ينتبه وأن يندهش من الأشياء ليباشر مساءلة العالم دون كلل أو ملل. علاوة على ذلك، يقتضي الأمر إبطال الأخطاء، لأن الحقيقة لا تنكشف بسهولة. قد تبدو الظواهر الحسيّة في منزلة أوهام وأن يكون ما تعلّمناه قابلاً للنقض، وأفكارنا مُعكّرة بالانفعالات.

لذا يتطلّب الأمر الفهم من أجل التعلّم، لأن انطلاقاً من التفكيك الضروري للفهم، تُبتكر المعرفة. المعرفة في اللاتينية sapere معناها الذوق والإدراك. تخصّص المعرفة مجموعة من الإدراكات المعرفية المُقدّرة والمُبسّطة نوعاً ما، ثم المرتبة والمنسّقة. لا تدلّ المعرفة على العلم فقط، فهي أيضاً مسألة ذوق. يُثبت أرسطو أن:

«ما ندعوه هنا المعرفة هو المعرفة من طريق الاستدلال»<sup>(36)</sup>.

ينطبق هذا الأمر على التعريف المبسّط للمعرفة والسّارية منذ العصر الحديث. من يدرس ويحلّل بنفسه مجموع المعارف، يُشيد في ذاته مخطّطات ذهنية مُبسّطة بتقديره الخاص. فهو يُرگّب. تتيح له استدالاته الفهم.

لكن يتطلّب الأمر تبيان مسألة مهمّة: صحيح أن الفلسفة وضعت العقل في قلب تطوُّرها التاريخي. كانت ماهيتها تكمن في المطلق الذي كان يتيح بلوغ الحقيقة والمبادئ الكبرى والإله. غير أن بنقد الميتافيزيقا<sup>(37)</sup>

---

(36) Aristote, *Organon, Seconds analytiques*, liv. 1, § 2, p. 8, éd. Vrin.

(37) الميتافيزيقا عند أرسطو هي الاسم الدال على مجموع الكتب التي تأتي بعد الفيزياء. لكن الميتافيزيقا بالمعنى اليوناني (meta ta phusika)، أي ما هو أسمى من الفيزيقا، تقوم بمساءلة العلل الأولى ومبادئ كل الأشياء. بهذا المعنى وضعت الميتافيزيقا وجود الإله وطبيعته مشكلاً أساسياً. وفي تطوُّرها، عملت على معرفة كيف أن ابتكارات فكرنا تُدرك العالم وتنطبق عليه. وأخيراً، وضعت مشكلة طبيعة الإنسان ووجوده بالمقارنة مع الحرية. غالباً ما كانت المؤاخذة على الميتافيزيقا أنها لا تتساءل سوى حول أصل العالم وليس حول أصل المعرفة. تُسمّى هذه الحركة المناهضة التي ابتدأت مع كانط بالنزعة النقدية.

وموت الإله<sup>(38)</sup> وفلسفة العبث<sup>(39)</sup>، وعى العقل بحدوده الخاصة. وإن حاول بلوغ المعرفة والإحاطة بكُلِّية الأشياء، يبقى العقل قوة محدودة ومن ثمَّ نسبية. إذا في لحظةٍ ما، جُعِلت الثقة العمياء في العقل بوصفه أداة بلوغ يقيني للمعرفة؛ اليوم، وعلى العكس من ذلك، تمَّ التقليل من قيمته إلى غاية جعله أداة ثانوية. ليست الشكوك حول العقل في نهاية المطاف سوى الارتياحات التي يستشعرها البشر، نتيجة الوعود غير المستوفاة، سليلة عصر الأنوار: في زمن العولمة، وطغيان سلطة نفعية واقتصادية، وتقنية متنامية نازعة لأنسنة العلاقات الإنسانية، والصراعات والحروب على خلفية الإرهاب

---

(38) موت الإله هي فكرة نيتشوية تكمن في شجب الدين وتبيان هشاشته أمام الحياة. إنها استعارة لا تقول الموت الحقيقي للإله، بل موت الأديان التي تعظ أخلاق الضعيف. لكن أخذ بعض الفلاسفة والكتَّاب هذه المقولة حرفيًا بقولهم بأن الإله قد مات، وأن كل شيء مباح، كل واحد يفعل ما يحلو له، بحكم لا وجود لما وراء يُخشى منه.

(39) تشير فلسفة العبث إلى اللحظة التي يجد فيها الإنسان وحيدًا أمام ذاته. إنها نتيجة فكرة موت الإله. إذا لم يكن هنالك إله، فالإنسان متخلَّى عنه، وحيدًا أمام ذاته. يفلت منه معنى الحياة. كل شيء يبدو له باطلاً. يشعر من جرَّاء ذلك بدوخة وبغثيان أمام اعتبارية الأشياء. عليه إذاً أن يُعطي معنى لحياته بغياب معنى يجده.

والمحيط الطبيعي المهَّدّ باستمرار، استسلم الإنسان للارتباك. يبدو الإنسان أحياناً عبداً لشرطه البشري. ويُلاحظ اليوم أن عقله لم يُقده دوماً إلى الفعل المعقول. يتوجَّب على هذا الأساس إعادة طرح السؤال. بإدراك الجديد والتأقلم مع التغيُّرات المرتبطة بالتطوُّر، على العقل أن يتصرَّف بشكل آخر. وعليه، يتطلَّب الأمر إعادة الاعتبار والتفويض للعقل: العقل في نجدة العقل. لأن العقل يقود مصير البشرية. ليس التيهان الراهن سوى تجلِّيات وأساسيات الاستدلالات العقلية الجديدة (أحياناً غير معقولة وغير مكيفة) التي ينبغي التعوُّد عليها للتكيف مع التحوُّلات التقنية والاقتصادية والاجتماعية وتغيير السلوكيات. لا يمكن للإنسان أن ييأس من ذاته:

«أخيراً، يبدو لنا الأفق حُرّاً من جديد، على افتراض أنه غير واضح، -يمكن للبوارج أن تضع الأشرعة من جديد، والإبحار وسط المخاطر-؛ كل ضربات الحظ لمن يبحث عن المعرفة هي متاحة من جديد؛ وينفتح البحر، في بحرنا المليء، أمامنا من جديد، وربما لم يكن هنالك بحر "مليء" بهذه الدرجة»<sup>(40)</sup>.

## الثقافة والاستقلالية

لقد حان الوقت لأن يظفر الإنسان بحريته. تكمن المعرفة في أن يظفر باستقلاليته، وأن يثق بحريته ليكون سيّد خياراته. هكذا تتيح لنا المعرفة تفادي الدغمائية والتمذهب. فهي تدعو إلى أن تصير سفير الثقافة. صحيح أن سيرورة التعلّم تبقى صعبة أحياناً. الثقافة بنصيبها في العادات اللائقة وإتقان اللغة والمعرفة المدرسية وحُسن الأداء وحُسن الكينونة، ليست بديهية. ينبغي سنوات عديدة من التحصيل لاستيعابها وإتقانها. تُتيح الطريق الطويلة في التربية للفكر بأن يجد حريته شيئاً فشيئاً. غير أن بمقدار ما يتعلّم الطفل ويتحكّم في ثقافته، فهو يشعر بنوع من الافتخار. ويُدرك بعد ذلك بأنها وسيلة ناجعة في الانخراط السهل في كل المجالات. يتوصّل بسهولة وبفضل تربيته إلى التأقلم مع تغيّر الوضعيات.

تقوم الثقافة بقولته :

«الثقافة هي الإرث المعلومي المرکّب من المعارف والمهارات والقواعد والمعايير الخاصة بالمجتمع [...]». يتمّ تعلّم الثقافة وتعلّمها من

جديد ونقلها وإعادة إنتاجها من جيل إلى آخر.  
فهي غير موضوعة في الجينات، بل في الروح-  
الدماغ للكائنات البشرية»<sup>(41)</sup>.

يكمن النجاح الحقيقي في نقل ثقافته، بأن يكون  
أفضل ممثلاً لها، لينفتح على العالم وعلى الحضارات  
الأخرى. يصبح الوعي المتربّي والحكيم الناطق الرسمي  
العالمي. على خلاف من الفكر الكانطي<sup>(42)</sup>، أظنُّ أن  
إتقان الفلسفة ومفاهيمها، لا يكون دون معرفة القدماء.  
لأن عندما نُشكّل أحكامنا، فإننا نُفكّر دائماً بالمقارنة مع  
الآخرين. نتملّك مفاهيمهم بنقدها. يكمن التّفلسّف في  
دراسة الفلاسفة والتّفكير، وليس فقط... تتيح الأسفار  
كذلك اختبار معارفنا لمقارنتها بالواقع.

---

(41) Morin, *La méthode*, t. 2, «La vie de la vie», p. 245, Le Seuil.

إدغار موران، ولد عام 1921، تحت اسم إدغار ناهوم (Edgar Nahoum) هو عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي. حالياً هو مدير الأبحاث المتقاعد في المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS).

(42) إمانويل كانط (1724-1804). يعتقد أن الفلسفة لا تُتعلّم. في نظره، ينبغي ممارسة التفكير واستعمال العقل. بينما الثقافة الفلسفية ثانوية. غير أن أحدهما لا يكون دون الآخر في نظري. حُسن التفكير هو القُدرة على التموضع بالمقارنة مع القدماء، إما بالتفكّر لهم، وإما بمجاورتهم. لا يفتح الفكر سوى عندما يتموقع.

لا يمكن للفيلسوف أن يُفكّر في مفاهيم فارغة تقلعه عن العالم وتعزله هكذا عن البشر. يكمن ميلاد الحكمة في الوعي بهذا الانفتاح على العالم. تتحدّد قوّة الفكر في أنه في كل مرّة يتساءل حول ذاته، يُعبّر عن بؤرة انطلاق لبناء الجديد. تدل هذه البؤرة المبدئية على كُليّة فردية تتناسب مع فترة معيّنة أو ثقافة أو طبع خاص. تتوافق مع الذي يُباشر التفكير في اللحظة التي يُفكّر فيها. يُشكّل هذا المفكّر الذي يتألف مع عصره محوراً إبداعياً للفكر الذي ينشأ ويتشكّل انطلاقاً ممّا هو كائن، أي المكتسبات الشخصية لمن يُفكّر. غير أن تفكيره ينخرط في تاريخ جماعي للفكر. يُشكّل فلاسفة الماضي إرثاً يستحقّ البحث والدرس، وإن كان من وجهة نقد القيمة التي يحملها هذا الإرث. لنلاحظ أيضاً أن كل المعارف في الماضي العريق كانت ممتزجة ولم يكن بالإمكان أن يكون أحدهم فيلسوفاً ما لم يكن فيزيائياً ومؤرخاً، إلخ. كان يُبدي هذا الأمر الإرادة في بلوغ المعرفة الكونية.

ما تغيّر اليوم هو أنه تمّ الفصل بين العلوم وتجزئة المعرفة. بهذا المعنى، يعرف العالمُ أشياء كثيرة، لكن في حقلٍ دقيق ومحدّد. إنه المتخصّص في علم ما. على العكس من ذلك، الفيلسوف ليس العالم. فهو يرفض التخصّص المحصور بفرادته، ويُفضّل الإحاطة بالمعرفة



الكونية. وعليه، نلاحظ بأن الكليّة العلمية كما تصوّرها القدماء، كانت في العلم الحديث، مُقطّعة إلى أنظمة معرفية وعلوم. ومن ثَمّة، تجزّأت المعرفة، بينما نسعى في المعالجة الفلسفية إلى مقارنة شاملة للمعرفة. نتيجة ذلك هي أن الطريقة الفلسفية تبقى مختلفة. ويحمل هذا التمييز على التفكير في أن الفلسفة هي في متناول الجميع. ليس بتعميمها، لأن من المُضِرّ القول «لكلّ فلسفته» مثلما يُقال «لكلّ أفكاره»، ولكن بأن يُضفى عليها قيمة التماس المعرفة الصارمة، لكنها مُبسّطة.

مثلما يتعدّر علينا مضارعة الفكر الفلسفي، يتعدّر علينا كذلك مضارعة العلم. نُعارض بذلك بروتاغوراس الذي زعم بأن «الإنسان هو معيارُ الأشياء جميعها». لا يمكن هكذا جعل المعارف نسبية وتذويبها في الآراء والظنون العامة. هو اختزالها إلى حالات بسيطة من الإحساس كما لو جعلنا منها مسألة ذائقة وتقديرات شخصية. مثلاً، يمكن لهذا الطعام أن يبدو لي لذيذاً، بينما يجده شخص آخر كريهاً. هل معنى ذلك أنه جيّد لأحدهما وسيء للآخر؟ لا. لأن بالقياس، هذا يعني اختزال العلم في الحساسية التي يختبرها كل واحد في اتّصاله بالعالم. بينما يحيل العلم إلى الكوني. فهو

ينحو إلى تحديد الواقع من وجهة نظر ثابتة وليست متغيرة تبعاً للحالة الذهنية للذي يدرسه.

من جانب آخر، تركز الفلسفة على معارف مختلفة. فهي عمل في التبُّحُّر المعرفي والتفكير والبحث. تدرس الخصوصيات وتتوقَّف عند مشكلات تطرحها مُختلف المجالات العلمية وتفاعلاتها. فهي تضحى بذلك عبارة عن ابستمولوجيا<sup>(43)</sup>. غير أن على الخلاف من العلم الذي يهتمُّ بالمادَّة وبكينونتها الخاصة، يتبدَّى موضوع الفلسفة في الفكر ومنهجها في الحدس. بالرغم من ذلك، ليس الإنسان كائناً مُتأملاً. فهو ينخرط في الوجود. لذا، تسعى الفلسفة لأن تكون أيضاً عملية. والنتيجة هي أنه لا يمكننا أن نختزلها في ممارسة نقدية ونظرية من إجراء العقل. يتعلَّق الأمر الآن بالبحث كيف أن ممارسة الفلسفة تُوجِّه كذلك أفعالنا وتُرشد سلوكياتنا.

---

(43) أي «معرفة المعرفة»، ويُعرِّفها أندري لالاند على أنها «الدرس النقدي لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، الرامي إلى تحديد أصلها المنطقي، قيمتها ومداهها الموضوعي» (أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ج2، ص357). (المترجم).

## القسم الثاني

التَّفَلُّسُفُ مِنْ أَجْلِ الْفِعْلِ



1

## كينونة الفعل



## المشورة

ليست الفلسفة علماً فقط، فهي تدعو كذلك إلى سلوك فكري يُمهّد للفعل. يقع الإنسان الذي يتعاطى الفلسفة بين العلم والجهل. تضع الحقيقة الوجودية الإنسان أمام امتحان. يسعى الوعي لأن يتحقق من معرفته، وكل حدث معيش يضعه أمام وضعية طريفة يعمل على التأقلم معها. ليس في وسعه سوى التقدّم. كما يُشير أفلاطون:

«لا أحد من الآلهة يتفلسف أو يرغب في أن يصير عالماً، لأنه عالمٌ بالفعل؛ وعلى العموم، عندما يكون أحدهم عالماً فهو لا يتفلسف؛ والجهال لا يتفلسفون أيضاً، لأن الجهل يتميز بهذه الميزة المؤسفة بحيث يتصوّر أحدهم بأنه حقيق بها، بلا طيبة أو جمال أو علم. غير أن بالاعتقاد بفقدان شيءٍ ما، فالنتيجة هي أنه لا يُرغَب فيه»<sup>(1)</sup>.

في الواقع، يتبدّى في كل حُكْمٍ من أحكامنا موقف.

Platon, *Le Banquet*, 204a.

(1)

يُناسب الحُكم علامة إرادتي وانخراطي في العالم. يمكن أن نستحضر الطابع الدينامي لمجلى وعينا في العالم. إنه وعيٌ قصدي. تبقى المعرفة الحَقَّة هي ما يُختَبَر في فاعلية التجربة. ينطوي استعمال العقل النظري إذاً على مهارة عملية. يتعلَّق الأمر بقوة في القرار حيث تُمارَس القُدرة عبر خياراتنا وحركاتنا. بوصفها حليف العقل، تُجسِّد الإرادة قيمة إيجابية، على أساس أنها تكمن في استخلاص من المشترك العالم الشخصية الفدَّة التي يدأب كل واحدٍ على أن يُجسِّدها في ذاته، بمقدار ما يُشَيِّد تاريخه. لكن، قبل أن نتصرَّف، علينا أن نُفكِّر ونُشاوِر ونختار. ومن ثَمَّة، ينقسم الفعل الإرادي إلى أربع مراحل متميزة: السبق والمشورة والقرار والفعل.

ينطبق السُّبق على مرحلة الإعداد، نتمثَّل فيها ما ننوي القيام به وبتقدير ما يُخبِّئه لنا المستقبل. هكذا ندرك مصادفات المستقبل. بهذا المعنى يندفع الإنسان نحو الآتي ويتخيَّل بسبق الفعل وتهيئته. تأتي بعد ذلك المشورة التي ندرس فيها دوافع فعلنا ونقدِّر ما فيها من نتائج. نوجد هكذا في مفترق الإمكانات المختلفة التي بحوزتنا وينبغي اتِّخاذ القرار والتوجُّه. ما نقوم به هو من ثمَّ اختبار الحرية. الرغبة في حدِّتها هي التي تُسوِّغ خيارنا، ليس بوصفها طاقة في التفكير بل باعتبارها مُحرك الفعل،



على أساس أنها رغبة استثنائية. تتَّجه الرغبة نحو الفعل تبعاً لما تُقدِّمه لنا الوضعية، إذا كان ممكناً أو غير ممكن. يتعلَّق الأمر هنا بتقدير الهدف المراد بلوغه. لا تكمن الإرادة في حافز (impulsion) بل في رغبة يتمُّ تحويلها وتنظيمها عقلياً من أجل غاية محدَّدة. تتبدَّى المشورة في الحوار الداخلي الذي يمرُّ عبر خيارات متناقضة وتقييمات لإثبات حكماً في نهاية المطاف.

يأتي بعد ذلك القرار الذي يتوافق مع إنجاز المشورة والانكشاف التام للحرية. يتوجَّه القرار نحو الفعل ويُشكِّل بذلك نتيجة المشورة. لكنه منطلق الفعل؛ لذا ينبغي أن يُدعَّم بالإرادة ليذهب إلى منتهى إنجازه دون تراجع. على الخلاف من ذلك، عندما تفشل المشورة، يحدث التردُّد واللامبالاة وأعدار غياب الفعل. كذلك، عندما تكون متسرَّعة، فهي ليست سوى حصيلة الحافز. بالنسبة للإنسان، يتحدَّد الخيار بإدراك رؤية شاملة. هذا يُفسَّر لماذا كلما ظلت إدراكاتنا مبهمّة، كانت قراراتنا طائشة أو تُؤثِّر عليها عوامل لا نُدرِك مرماها جليّاً. لذا، وبحكم أن الفكر له القدرة على التفكير، يمكنه أن يستحدث أفعال أنفسنا وحركات أجسامنا، لأنه يقود قراراتنا. فهو يُملي ويُدبِّر خياراتنا. تتوقَّف على استقلالته نوعية ما ننخرط فيه.

«يبدو لي مقبولاً، يقول برغسون، أن الوعي، الذي هو محايد لكل ما هو حيّ، ينام في الجهة التي تعجُّ بالحركة العفوية، ويتحمّس عندما تنزع الحياة نحو النشاط الحُر. كل واحد منّا تحقّق من هذا القانون على ذاته. ماذا يحدث عندما تتوقّف إحدى أفعالنا عن كونها عفوية وتصبح آليّة؟ ينسحب الوعي.

[...] يبدو أن درجات الحِدّة لوعينا تتناسب مع جُملة معتبرة نوعاً ما من الخيارات أو من الخلق إذا أردتم، التي نُوزّعها على سلوكنا. يُعتقد بأن الأمر ينطبق على الوعي عموماً. إذا كان الوعي يدل على الذاكرة والسبق، معنى ذلك أن الوعي يرادف الخيار»<sup>(2)</sup>.

يتحدّد الانتقال إلى الفعل كإنجازٍ تُدعّمه ممارسة الإرادة. تعمل الإرادة إذاً على الحفاظ على مبدأ الرضى. تكمن قوتنا في أن إمكانية الفعل، هذا المُنبّه الداخلي، تدفعنا إلى الأمام والبقاء متحفّزاً بشكل ذكيّ. على الخلاف من الذين ينتابهم الضعف أو الوهن، تشهد

---

Bergson, *La conscience et la vie* (1911), in «L'énergie spirituelle» (2) (1919), éditions Gallimard.

الإرادة المحتفظ بها على متانة طبعنا. نولي وجوهنا شطر المستقبل وإن كانت وحدة باطننا ترتبط بحدسنا الآني وبذاكرتنا، احتفاظاً بالماضي. بحوزة الإنسان في ما يحتفظ به هذه القدرة على التغيّر والتقلّب والتحفّز. في النهاية، يُقدّم لنا باطننا سرباً متنوعاً من الأحوال الممكنة، مضامين اعتبارية، تسعى لأن تتحقّق في كل لحظة. ليس الاعتباري أو الافتراضي (le virtuel) إمكاناً محضاً ومجرداً. فهو يدلُّ على الانتقال إلى الإنجاز الآني، مَيْل أو نزوع. صحيح أن بعض القناعات الأخلاقية لا تجد معناها سوى في الفعل، أي في التجربة التي ينخرط الكائن في كُليّتها.

يُعدُّ الفعل شكلاً من الخلق، مشروعاً ناضجاً يسعى لأن يتحقّق. يستلزم القرار الإرادي وعياً نبهياً يُنيره التفكير. يتأمّل الوعي في مشروعية ما يهدف إليه. في ختام فحصه النقدي، يختار الوعي بأن يتحقّق أو العكس بأن يُفضّل السكون إذا بدت له الظروف غير ملائمة. غير أن الإرادة هي أيضاً قدرة في الرفض أو العدول. بفضلها أتمالك نفسي وأتغلّب بالسلب على كل رغبة. بأيّ معنى تتيح لي ممارسة الفلسفة التحكّم في رغباتي؟

## الاعتدال

تحليل الفلسفة كذلك إلى أخلاق السعادة. لقد بينا بأن الإنسان يمتلك مبادئ داخلية (في باطنه) تثير فيه دوافع الفعل. يتحقق هذا الأخير بفضل الإرادة، أي بالنزوع الذي يدفع الإنسان إلى الخيار؛ وترتبط البواعث التي تُحدّد الفعل بالمعرفة لأن العقل يقوم بغربلتها وتكمن مهمّته في تركيب دوافعه ويُصادق على الإرادة. طبعاً، يختلف الأمر تماماً عندما يتعلّق الأمر بالتسرّع، عندما لا نُفكّر ملياً قبل الفعل، أو عندما تقود الرغبات الإنسان التعيس بدلاً من أن يقوده الفكر. عندما تُؤثّر الإنفعالات على الإنسان وعندما يتعكّر هذا الأخير بالرغبات، تسوء قدرته على القرار، كما يُبين أفلاطون: «تتعقّل النفس جيداً عندما لا يُعكّر صفوها أيُّ شيء، لا السماع ولا النظر ولا الألم ولا أيُّ لذّة، على العكس تنعزل النفس كُليّةً في ذاتها، بأن تترك الجسم يسرح وتقطع معه كل صلة على قدر المستطاع لكي تُدرك جوهر الواقع»<sup>(3)</sup>.

هنا بالضبط تُمارَس الفلسفة بوصفها إتياناً للحكمة. يفترض البحث عن الحقيقة قطيعة مع النظام الانفعالي والحسي للقلب لتحديد التَّسامي نحو الحكمة. فهو يقتضي التجرُّد عن الجسم، نوع من التَّطهير (catharsis)، أي تطهير الفكر. إذا عزف هذا الأخير عن الحس، فهو يتوصَّل بالأشياء العقلية المجرَّدة. يمكن الحديث عن نوع من الزُّهد، بمعنى الجُهد للتحرُّر من الانفعالات والحاجات والخيال.

جُعِل الإنسان لأن تكون الرِّغبة فيه قويَّة وتدفعه إلى الشراهة الطبيعية. تُعبِّر الرِّغبة عن «البُعد غير المكتمل لديه»، بحكم أنه يُجسِّد الحنين إلى ما لا نملكه أو ما لم نعد نملكه. فهو يبحث انطلاقاً من هذا النزوع عن إشباع ما ينقصه وسدِّه. عندما تمحو الرِّغبة النَّفسَ، فهي تتصرَّف كسجَّان قاسٍ، تعزلها عن كل تفكير، وتحول بينها وبين الطابع العقلاني المجبولة عليه. تفتقد النَّفس الحُرِّيَّة في حُكمها لأنها مُعكَّرة ومتأثِّرة بالنزوات الحسيَّة وخاضعة لها.

تُصبح الرِّغبة بهذا المعنى مُستبدَّة وجائرة:

«هكذا، صديقي العزيز، لا شيء يجعل الإنسان طاغياً مثل طبعه أو سلوكه أو هما معاً، الذين

يجعلان منه سَكِّيراً وعاشقاً ومجنوناً. إليك الكيفية التي يتشكّل بها الإنسان الطاغي؛ لكن كيف يحيا؟ أتصوّر بأنها حياة البذخ والحفلات والملذّات لمن ترك الطاغية "إيرُوس" يتسلّل إلى نفسه ويحكم كل حركاته"<sup>(4)</sup>.

يبدو أن العاطفي يتميّز بالإفراط والنزوع نحو الشطط. بدلاً من التوق إلى اللذّات الرّفيعة والعقلية، يهوى الإنسان حياة المجون ويترك انفعالاته تتحرّر وكذلك طبيعته الشهوانية شبه الحيوانية والغريزية. يشتمل هذا الاستلاب على خطر الاختلال على اعتبار أن جانباً من الجسم يحتكر مركز الاهتمام على حساب الباقي. يتعلّق الأمر بظاهرة في تضخّم نزوع على حساب الميول الأخرى، خصوصاً الميل نحو العقلانية. نشهد إذاً سقوطاً تدريجياً ولا علاج له نحو السّلبية والخمول. هذا ما يُحدّد الانفعال من وجهة نظر اشتقاقية.

في الثنائية التي يتركّب منها، يشعر الإنسان بصعوبة التوافق بين النفس والجسم. في لحظة الهوى، يهب الآخر نفسه لي كائناً مرغوباً فيه. الافتتان الذي يُمارسه

---

Platon, *La République*, Livre IX, 572c, 573c.

(4)

عليّ يجعلني هسّاً وفي الوقت نفسه فذاً وفريداً. لذا، غالباً ما تُستحضر نشوة الحُب. في مركز المفارقة الخاصّة بالمُخطّط الانفعالي، يوجد الأنا المفتتن بالحسّي الكائن خارج ذاتي. يتعلّق الأمر بأشياء برّانية تُثير المشاعر والعواطف والرغبات. فأنا «أتصرّف» خارجياً بإيعازٍ من الآخر. يُبرز الغضب جانباً من هذه الحالة، عندما أثبت بأنني خارج طوري. يدلُّ هذا الأمر على أن رغباتي هي ردودٌ على أفعال خارجية. هذا ما تعنيه كلمة المنفعل. ما يصبح قابلاً للطعن هو عندما ينقطع الإنسان للعاطفة ويضحى مشروطاً بها على شاكلة كلب بافلوف الذي يبدأ لعبه في السيلان في أوّل إشارة. تضع العاطفة الفرد في حالة الترقّب. يتجلّى ذلك في انتظار يُميّزه التناقض على أساس أنها تجمع بين الخشية والأمل. فهي تعادل ضيق التأثر، قلق يحملنا نحو اللاتوازن المستمر. يبدو لنا القلق إذا شعوراً إنسانياً بامتياز.

نشعر بأننا نحيا في مفترق المتعة والألم. يتواقف القلق مع حالة من «اللاهْدوء» النفسي. يعطينا هذا الأخير الانطباع بالضيق وغياب الطمأنينة. يدفعنا هذا الضيق إلى الفعل. تجد النفس ذاتها في حالة مستمرة من اللاتوازن تسعى لإصلاحه. تنشأ انطلاقاً من هذه الحالة صيرورة إيقاعية تتجدّد باستمرار؛ نوع من الحركة المتذبذبة التي

تُبقينا في حالة احتراس. هذه البلبلة الدائمة شبيهة بحركة رُقاص السَّاعة كما يذهب الفيلسوف ليبنتز؛ إنه «بلا-راحة» (Un-ruhe)، في حالة من «الاضطراب». هكذا يبدو أن القرار يندفع بجوقة غير مسموعة من الإدراكات الصغيرة التي تتابنا لاشعورياً، وهي في العمق تسترعي الانتباه. يبدو لنا الإدراك وكأنه كون داخلي. فهو يتركّب من المضايقات الطفيفة التي ينبعث منها الشعور بالقلق، يُدرِّك لكن لا يُمكن استجلاؤه، بحكم أنه غير مؤلم وغير مستحَب.

يُدرِّك هذا الشعور بوصفه ميلاً ناشئاً ومنتشراً، ينبثق من خواطر صمّاء نخبر انطلاقاً منها عدم الاستقرار. يبدو أن اللاتناهي والكثرة اللذان نختبرهما في ذواتنا، يأتيان لينتابا وحدة الأنا. وعليه، يبحث الإنسان عن إصلاح وضعيته. يعمل على سدّ ما هو محروم منه ليعالج حالة الضيق التي يعيشها، عجيجٌ باطني. هكذا تنخرط الرغبة في ذواتنا: نُقص داخلي يبحث عن الإشباع: «القلق الذي يشعر به الإنسان في ذاته بغياب الشيء الذي يُمتعه في حالة ما إذا وُجد، هو ما يُسمّى الرغبة. القلق هو الباعث الأساس إن لم نقل الوحيد الذي يثير مهارة البشر ونشاطاتهم؛ لأن مهما كان هنالك شيء يُقترح على الإنسان، إذا لم يتبع غياب هذا الشيء كدرٌّ أو ألمٌ، وأن



المحروم منه يمكنه أن يكون مسروراً ومرتاحاً دون امتلاكه، فهو لا ينتبه للفرصة فيه وأقل من ذلك السعي للتمتع به»<sup>(5)</sup>. وجه المفارقة هي أن الرغبة تبدو في نزوعها الإيجابي مُحرك الفعل. ليست الرغبة مستنكرة دائماً، خصوصاً عندما تتحدّد على أساس أنها قوّة في نموّ طاقة التواجد.

أما الاعتدال، فهو يدلُّ على فضيلة تتعلّق بما هو خارج الإنسان، ما يُؤثّر فيه. يكمن في الاستعداد للتغلّب على الإغواءات الخارجية والتمييز بين الرغبات الحسنة والرغبات السيئة. عندما يتصرّف الإنسان في نطاق الاعتدال، فهو يمارس الحِلْم أو الرأفة. بدلاً من أن يجنح لبلبله نزوع مُسرف، فهو يُحبّد التفكير. يختار الدقّة ويتفادى قساوة التعصّب. يتجلّى الاعتدال في القبول بأفكار سليمة على حساب كل ما هو متهورّ ومتعصّب وإقصائي. تنادي الحكمة باعتماد الكمال ومشروع مُستقر ومدرّوس. يدعو هذا السلوك إلى تحقيق مُتعة مشروعة بالتخلّي عن المُتعة المؤدّية إلى الإسراف والاضطراب والألم. فهو يُحبّد التحرُّر من الإكراهات الحسيّة. هكذا

---

Leibniz, *Nouveaux essais sur l'entendement humain*, Livre II. Chap. (5)  
XX.

ينصرف العقل عن الطبيعة المتقلّبة للرغبات. يُعزّز الاعتدال من نجاعته عندما تشترك مع ثلاث فضائل أخرى وهي: التعقّل والقوّة والعدل.

يُحيل التعقّل إلى ما أدرجناه في السابق بشأن رهانات المشورة. يكمن هذا التعقّل في وزن ما له وما عليه بحصافة، أي التشاور قبل التصرّف. إنه استهلال كل فعل من أجل الصّون ومن أجل رخاء قادم. تكمن هذه الفضيلة في المقدار العادل بين الوسائل المستخدمة والهدف المنشود. ليست لحظة التوقّف قبل الانخراط في الفعل حالة جمود، بل هي مرحلة فاعلة، لحظة التفكير التي تُحدّد كُليّة خياراتنا. أما القوّة، فهي تدلّ على القدرة الآلية في الإنجاز. يتعلّق الأمر بالاستطاعة. إنها المرحلة الدينامية من الرغبة. يُوكّد ليبنتز بشأن ذلك: «تكمن هذه الدوافع اللطيفة في التحرّر دوماً من العوائق الصغيرة، هذا ما تشتغل عليه طبيعتنا دون درايتنا»<sup>(6)</sup>. تميّز طبيعتنا بالقوّة أو الجُهد الذي هو وساطة بين الإرادة المحضة والفعل ذاته. تكمن لحظة الخيار في تحديد فوري للوضع الراهن. يمكن عدّها صيرورة أو انتقالاً أو مساراً لا ينفك

---

Leibniz, *Nouveaux essais sur l'entendement humain*, L.II, Des idées, (6) p. 148, Garnier-Flammarion.

عن التطوُّر. يتعلَّق الأمر بعُنصر دينامي تنبع منه أحوالنا الآتية. القوَّة هي طاقة داخلية يُنتج الإنسان بعضاً من تنوُّعاتها.

تمائل القوة المُنبَّه الداخلي الذي يتيح تحيين القرارات. الافتراضي المجرَّد الذي يُفكَّر فيه خلال المشورة، هو مجرَّد عبور أو انتقال قبل الإنجاز. يدل هذا الشيء على نزوع. لذا، نُشدِّد على بُعد المفارقة في الرغبة الممكن عدُّه في حالاته المفرطة ضارًّا، وفي حالاته الإيجابية دينامياً. يعمل بوصفه مبدأً دينامياً ويحدِّد توجُّهات أفعالنا:

«إذا كانت الرغبة تنتج شيئاً ما، فهي تنتج الواقع. إذا كانت دافعاً منتجاً، فلا يمكنها ذلك سوى في الواقع وبالواقع. الرغبة هي مجموع التركيبات المنفعلة التي تُدبِّر الأشياء الجزئية والتدفُّقات والأجساد، التي تشتغل بوصفها وحدات إنتاجية. ينجم عنها الواقع، فهو حصيلة تركيبات منفعلة للرغبة بوصفها إنتاج ذاتي للاشعور. لا ينقص الرغبة أيُّ شيء، فلا يفتقر إلى موضوعه»<sup>(7)</sup>.

---

Gilles Deleuze, *L'Anti-Ceudipe*, Les éditions de Minuit, 1972, p. 32-35. (7)

يتعلّق الأمر إذاً بإرادة خلاقية في القوة. توجّهنا الرغبة نحو خياراتنا. يمكن للإنفعالات أن توفر أيضاً الدوافع المهمّة لأفعالنا. فقط لأن الانفعال يُكسّر الرتبة اليومية. فهو يمنح القيمة والحدّة في الوجود، الذي يبدو محتتماً وجذاباً. يبقى الفكر مرتبطاً هكذا بالفعالية التي تجعل الفعل ممكناً، بجدل الرغبة. يُضاف إلى جانب هذه الفضائل الثلاث العدل. يُقاد هذا الأخير بمعرفة الخير والبحث عن الكمال. لذا، فهو يتجسّد في الإنصاف والمكيال الدقيق للأشياء. يكمن العدل في حكومة الذات والتحكّم في رغباتها. فهو يتيح الحصول على التوازن، ويرأس الانسجام الكائن بين الفضائل الأخرى. في الأخير، يقاوم العقل بشكل مستمر ضدّ الرغبات المفرطة والنوزاع السيئة. وإن كان يُطبّق أحياناً على الأشياء التافهة، فهو يبقى فاعلاً ونبهياً. لكن بحكم أن خطر الانقطاع في التوازن بين الغواية والفضيلة يبقى قائماً، فإن من واجب العقل أن يظل مرّكزاً ومواظباً ومنتبهاً.

في النهاية، يكمن التّفلسف في الانصراف بعزم عن الانفعالات الهدّامة وعن طبيعتنا العاطفية المفرطة لنبقى

---

جيل دولوز (1925-1995)، فيلسوف فرنسي استلهم من الفلاسفة الألمان ليبنتز ونيشه لإرساء فلسفته الخاصة.

سادة ذواتنا. يتعلّق الأمر بعدد الرغبة ليست كطاقة تتحكّم  
فيها، ولكن كعنصر دينامي يُشجّع على إنجاز خياراتنا.  
بهذا الاعتبار، تدلُّ الرغبة على الطاقة البشرية منظوراً  
إليها كقوّة في الإنجاز. يكفي إذاً أن يُجعل منها أداة  
ميكانيكية في خدمة إرادتنا النيرة. لكن في هاته الحالة،  
ما الأمر الذي يحثُّ فينا على الفعل؟



2

قاعدة فعلنا





## نحو مذهب في الواجب

لقد بيّنا بأن ليس في مشاعره ولا في طبيعته الانفعالية يتوصّل الإنسان إلى اكتشاف المبدأ المعقول لأفعاله. يمكن أن نستخلص من ذلك أن العقل هو الذي يضحى مبدأ كل مذهب في الواجب. يقودنا شرطنا ككائنات موجودة ولها موقع إلى الربط بين التوجّهين، بين النمطين الخاصّين في الوجود. يدلّ الإنسان على هذا الكائن الطبيعي، الذي يُركّز على حاجاته وضرورياته الحيوية. يتوافق كذلك مع هذا الكائن من أجل الحرّيّة، أي الفرد الذي لا يتحقّق سوى في خياراته وأفعاله وابتكاراته. نلاحظ بأنه من الصّعب التوفيق بين إجراءين متناقضين في المجال الأخلاقي لـ«إرادة-الوجود» («vouloir-êtré»)، أي في إطار سلوك أخلاقي:

- (1) التصرّف كما لو كنا مشرّعين، باعتبارنا الحاكمين على أفعالنا، بصفتنا وعياً.
- (2) التصرّف كذات، كفاعل يُسجّل حضوره في العالم وباستثماراته الشخصية بإثبات حرّيته.

تُطرح في عمق الإنسان إشكالية التداخل والالتباس

بين الحَكْم والخَصْم، لَمَّا كان الإنسان منخرطاً في خياراته حول هاتين الخُطَّتين، خُطَّة المُشْرَع أو الذات الأخلاقية وخُطَّة الوجود بالنسبة للحرية. يبقى الفعل الإرادي محدوداً بتمثُّل نتائجه. يحمل علامة انخراطي ويُعبَّر عن شخصيتي. وعليه، تنكشف الحرية بوصفها الشرط الحصري لـ «واجب-الوجود» («devoir-être»). بالفعل، إذا كان الواجب يفرض نفسه علينا بصورة ضمنية وحتمية، أي مطلقة، لا نكون على الدوام في حالة امتحان.

في الواقع، يتوقَّف الواجب على إرادتنا في إنجازهِ أم لا، وهنا بالضبط يكتسي معناه. فالحرية هي في أصل الأخلاق. فلأنني حُرٌّ لأن أختار فعل الخير أو العكس أن أتمصَّل من واجباتي، تستوفي الأخلاق معناها وقيمتها. في المسار الفعلي لوجودي، أمارس إرادتي الحرة. تتوقَّف أفعالي ومداهها على استطاعتي وحِدَّة إرادتي وعزمي على مقاومة كل الإغراءات. يكمن السلوك الأخلاقي أيضاً في تجنُّب ثلاثة أخطاء رئيسة ومؤسفة: النسيان ونقصان العقل و«صعوبة ترويض» الرغبات.

- النسيان، لأن أحياناً ننسى جوهر الأشياء ذاتها، ما كُنَّا عليه في زمن الطفولة، عندما كُنَّا نندهش من

الظواهر أماننا. ومن ثمة، بابتعادنا عن طبيعتنا الأولى، نتصرّف بطريقة مصطنعة، تفتقر إلى الصدق، نُحبذ الملكية (l'avoir) على الكينونة (l'être)، والمظهر (le paraître) على الوجود (l'être).

- نقصان العقل، لأن خياراتنا هي أحياناً غير معقولة أو غير عقلانية أو طائشة. نتصرّف بلا رويّة، بشكل اندفاعي ومُفرط. وهذا يُفقدنا معنى الرزانة.

- ثم غياب التحكّم في رغباتنا يقودنا إلى العيش في المغالاة وفي قطيعة مع توازننا الداخلي. يمكن تصحيح هذه الميول البذيئة بصرامة، وتصويبها باستعمال العقل، بممارسة الفلسفة. حريٌّ بنا أن نرسي قاعدة في الحُكم والإرادة والرغبة، كما يدعونا إلى ذلك ماركوس أربليوس<sup>(8)</sup>:

---

(8) ماركوس أربليوس (121-180)، إمبراطور روماني وفيلسوف رواقبي، ورث خصوصاً البُعد الأخلاقي للرواقية الذي يربطه باحترام القدماء، وبممارسة الاعتدال. يرى كذلك أن حُسن السلوك مرهون بالعيش وفق الطبيعة، والانخراط في سببية الكل. الفعل هو إدراج مسؤوليتنا في العالم.

«نبحث عن الاعتزال في البادية، على الشواطئ،  
أو في الجبال. وأنت أيضاً، تعودت على الرغبة  
في الأماكن المعزولة. لكن كل هذا مجرد ظن  
شائع، لأن في متناولك، في أي وقت تريد، أن  
تنعزل مع ذاتك. لا يجد الإنسان مكاناً أكثر  
سكوناً وهدوءاً مثل نفسه التي بين جنبيه، خصوصاً  
إذا كان يملك في باطنه هذه التصورات التي يكفي  
العكوف عليها للحصول فوراً على طمأنينة تامة،  
وبالطمأنينة لا أقصد شيئاً آخر سوى النظام  
الكامل»<sup>(9)</sup>.

---

Marc-Aurèle, *Pensées pour moi-même*, Livre IV, III, p. 57, Garnier-Flammarion. (9)

## التحوُّل الضروري

يدعونا نيتشه<sup>(10)</sup> إلى تنشيط أفعالنا بإنجاز ثلاثة تحوُّلات:

«سأحدِّثكم عن ثلاثة تحوُّلات للفكر: كيف يتحوَّل الفكر إلى جَمَل، والجَمَل إلى أَسَد، والأسد إلى طفل»<sup>(11)</sup>.

عندما يتجسَّد الفكر في الجمل، فهو يقبل العمل. يُطالب بأن يُرْفَع من جِملِه لأن دوره يكمن في حمل الأثقال. لكن هذا «الفكر-الجمل» هو قويٌّ ومتمين والأثقال لا تُفزعُه. بل يطلب المزيد من الأثقال قبل أن ينصرف إلى

---

(10) فريدريش نيتشه (1844-1900)، فيلسوف ألماني معروف بحدَّة أقواله المأثورة. غالباً ما كان غير مفهوم. يتميَّز بولعه بالحياة، ومحاولته في الجمع بين العالم الديونيزوسي للرجبات والعالم الأبولوني للحكمة كانت على قدمٍ خفيفة وهي الراقص الذي يُجَمِّل الحياة. فهو يرى أن الإرادة تتيح للإنسان بأن يتجاوز ذاته وأن يُضفي على وجوده القيمة المستوفاة: الإثبات المرح للإنسان الأعلى.

(11) Nietzsche, *Ainsi parlait Zarathoustra*, trad. G. Bianquis, Aubier, p.85.

صحرائه. نحن دائماً وحيدون في حمل همومنا. المعرفة هي الرضى بمهمتنا دون انتظار معونة خارجية. وفي التوحد، في الصحراء التي يهّم إليها الجمل، يتحقّق كونه «حيوان الأحمال». لكن لا يكفي أن يصبر ويتحمّل. لا بُدَّ أيضاً أن يتحرّر من عمله. لذا، يُصبح أسداً.

يظفر الأسد بحريّته، يتحدّد ويتحقّق. ينشد التحرّر ليكسب قوّته الكاسحة وتوحدّه. يناضل من أجل أن يبلغ حريّته. يرفض الأخلاق الإكراهية والدينية التي لا تُولّد سوى الضعف والكرهية. هكذا يُعاد تفسير الأمر «مِنْ وَاجِبِكَ» ويُستبدل بصيغة «أنا أريد». لكن لا بُدَّ من قوّة الأسد للظفر بقيم جديدة وتفادي أن يُفسد بـ«أخلاق زائفة». ينبغي تفادي الاستسلام وعدم الرضوخ للقيم القائمة لأنها تُجسّد أخلاق الانحطاط. لا يُجسّد «أنا أريد» فكراً متمرداً، بل هو يريد أن يكون منتصراً فاتحاً ويختار هذا المصير باكتساب قيم جديدة. تكمن قوّة الفكر الموضوعي في أنه يتفادي فساد «الأخلاق الزائفة» بذريعة أنها أخلاق الجميع. يرفض الأخلاق الدينية لأنها في نهاية المطاف هي صنعة البشر وتولّد الأوهام والأوهان. هذا السلوك الفلسفي العدمي<sup>(12)</sup> هو تنديدٌ

---

(12) العدمية (Nihilisme) هي نفي كل اعتقاد. فهي التخلّص من

بشكلٍ من الانحطاط يُؤلِّده البشر الفاسدون الذين يرضون بالخِسة والكراهية والرداءة والوهن. لقد انصرفوا عن القيم الحقيقية.

في الحقيقة، يؤكِّد نيتشه على أنه ينبغي التسلُّح بالمقاومة والمجاهدة لتفادي السقوط في الأمور السهلة والمبتذلة، وفي القيم الزائفة، التي تمَّ الارتقاء بها إلى مصاف الفضائل التي يُقدِّسها الضعيف. الطفل هو الذي يرمز في النهاية إلى البراءة ونسيان القيم الزائفة. الانتهاء بالطفل معناه التخلُّص من الفضائل الزائفة للتفرُّغ لتحقيق الذات. إنه طموحٌ واعٍ في بهجة الظفر بالإرادة والاستقلالية والعيش في التجاوز. يُثبت هذا الأمر ضرورة أن يكون أحدهم خلاقاً لحياته ولقيم جديدة وسليمة وفاقحة، وتهيئة الإنسان الأعلى في باطن كل واحدٍ منَّا. تجد الأخلاق مبدأها وأساسها في ضمير كل واحدٍ منَّا. معرفة الاغتناء بالأخطاء والتزام التواضع في كل فوز. تفادي الأعداء أو نعت الآخر بوصفه المسؤول عن استقالاتنا اليومية الخاصة بنا.

شجاعة اعتراف أحدهم: «لقد فشلتُ، أتحمَّل

---

الأفكار المكتسبة لتأسيس قيم جديدة. ينبغي «إسقاط أصنامها الهشة»، لأنها تبدو فارغة وبلا معنى.

وحدى مسؤولية ذلك! لم أعمل بما فيه الكفاية. لم أتدرب أكثر... لا ألومنّ سوى نفسي. إني المسؤول عن إخفاقاتي!». إذا كان الإنسان متحفّزاً وإذا احترم الآخر، وإذا أحبَّ الفعل النَّزيه، ليس لأنه فُرض عليه هذا الأمر: «مِنْ وَاجِبِكَ»، ولا لأنه يريد أن يُنقذ نفسه فتصرّف وفق الخير؛ بل لأنه اختار بمحض إرادته أن يحترم وأن يكون نزيهاً وصادقاً وقويّاً في المَحَن وعاملاً وخلاقاً. هكذا تنتصر الفضيلة. لكن لا يُختزل العالم في رؤية مانوية لكل ما يُستحدث فيه. لا تُختصر الأخلاق كذلك في بعض القواعد والأوامر، ولا في بعض الوصايا الدينية. يُدرَك العيش وفق الأخلاق بالاستقامة والطهارة. يكمن التمييز بين الخير والشر كما يُنبّه نيتشه في ممارسة فلسفة «المطرقة» لإسقاط «الأصنام الهشة»<sup>(13)</sup>. ما يهّم هو بناء الوجود على أخلاق واقعية وليس على «أخلاق» بائسة تحجّب الضعف، وهي مجرد ربط بين عديمي الكفاءة (التجمّع في العدد للوصول إلى الهيمنة).

(13) العبارة الحرفية «الأصنام ذات الأرجل من طين» (les idoles aux pieds d'argile)، وهي المعنى الحرفي للمعنى المجازي الدال على ما هو ضعيف ويقوم على دعائم هشة، قابلة للانهار في أية لحظة. (المترجم).



نشير إلى أن الإنسان ينخرط في العالم ويرتبط به. بهذا المعنى، فهو يشارك في العالم. غير أن البيئة التي نحيا فيها اليوم مهتدة بلامبالاة البشر، الذين يُلوّثون ويُهدّمون ويسعون إلى الربح. الإنسان الطيّب وحسن السلوك ليس فقط من يعتني بالآخرين. تنبثق مسؤوليته أيضاً على الطبيعة. لا ينحصر الأمر الأخلاقي في احترام الآخرين. بل يمتدُّ إلى الفضاء اليومي. يتعلّق الأمر بالحفاظ على العالم النباتي والحيواني، لأن من حقّ النباتات والحيوانات أيضاً أن يُحافظ على وجودها. هنا تكتسي عبارة «مواطن العالم» معناها الكامل.

لنحدّد بأن الأخلاق ليست بحاجة إلى إطارٍ ديني  
لتمارس:

«ليس التّقوى، يقول لوكريتيوس، أن يظهر أحدهم محجّباً وأمام حجرة، يقترب من كل المذابح، أو يسجد على الأرض ويرفع يديه أمام معابد الآلهة، وإغراق مذابحهم بالقرابين، وتسلسل الأدعية؛ بل التّقوى هي أن يتأمّل بروح مطمئنّة»<sup>(14)</sup>.

Lucrece, *De Natura Rerum*.

(14)

لوكريتيوس (98-55 ق.م)، شاعر وفيلسوف لاتيني. كان ينتمي إلى التيار الأبيقوري، الذي كان يمارس الحكمة بالابتعاد عن كل

تستقل الأخلاق عن الظاهرة الدينية. فهي توجد في الضمير، لأننا حَكَمُ أفعالنا. فمن واجبنا التصرف كبشرٍ خيرين، بمقتضى عقلنا وليس بموجب فضائل فارغة أو خطاب الماوراء الغامض. إذا كان هنالك إله، فإننا نكسب جنَّتنا. إذا لم يُوجد، فلنا رضى الشُّعور بالفعل المكتمل ونحكم بأن «كل شيء خير!». اختيار الخير هو اجتناب الطفولة، المغامرة السَّعيدة في طريق الظَّفَر باستقلاليتنا ومسؤوليتنا. يمكن للإنسان أن يتحرَّر في نهاية المطاف من ميوله الخسيسة ويستحضر إنسان الخير الذي ينام في باطنه.

---

ما يُسبب الاضطراب في النفس: الخشية من الآلهة، الخشية من الموت، إلخ.

## القسم الثالث

متى ولماذا نتفلسف؟



1

متى نتفلسف؟



## عند وقت الشباب

إذا كان الشَّبَاب في العصر القديم يتعاطى الفلسفة يومياً، يبدو أن الأمر يختلف في مجتمعنا المعاصر. الفلسفة هي مادّة فريدة، تتمتع في التدريس بمعالجة خاصّة وأحياناً غامضة. صحيح أن هذه المادّة «مفروضة» في أقسام النهائي في الثانوية، وبحجم ساعي ومعامل يختلف حسب الشُّعب من حيث الأهمية. بالإضافة إلى العدد الهائل من المفاهيم والدروس الواجب معرفتها، يتعلّق الأمر بالنسبة للشُّعب الأدبية بـ«إتقان» الخمسين كاتباً المقرّرين في البرنامج. على الخلاف من ذلك، خصوصاً في الشُّعب التقنية، يوجد القليل من الفلسفة. هذا أمر مؤسف لأن في نظري حُسن استعمال العقل لا يخضع إلى السنّ. ومن ثمة، فإن إصلاح تدريس الفلسفة أمرٌ ينبغي أن يُؤخذ بعين الاعتبار.

لا مرأى في أن الفلسفة يمكنها أن تُدرّس منذ السنة الثانية ثانوي بمعدّل ساعة إلى ساعتين في الأسبوع، تبعاً للشُّعب المختارة. تتيح هذه السنة التحضيرية في التدرّب على الفلسفة من أجل استيعاب ميلادها وحدثاتها،

بدراسة الفلسفة القديمة والأسماء الكبيرة: أفلاطون، أرسطو، أبيقور، ماركوس أربليوس وآخرون؛ وكذلك المدارس المتنوعة: من السابقين على سقراط إلى الرواقية مروراً بالأبيقورية والبيرونية<sup>(1)</sup>. ثم دراسة الفلسفة الكلاسيكية: التجريبية، الميتافيزيقا، النقدية. وفي الأخير، تتيح السنة النهائية تطوير المفاهيم التي تقتضي ممارسة معينة، ونوع من السعة بالمقارنة مع المعلومات المكتسبة. مثلاً: العبث، الوجودية، مفهوم «موت الإله»...

بهذا التقسيم، يتوزع التدريس على ثلاث سنوات بشكل كرونولوجي ومتكامل. فهو يتيح للمتمدرسين فهماً تدريجياً وعميقاً لما تُجسده مادّة الفلسفة. دون نسيان أن تلاميذ الثانوية بإمكانهم بسهولة التعود على الفلاسفة عبر مختلف القراءات، ثم عبر منهجية المقالة الفلسفية أو تحليل النص الفلسفي، التي تختلف نوعاً ما عن المواد الأخرى. من جانب آخر، يكون للطلبة الوقت اللازم للتداول مع أستاذهم، مما يُعيد للفلسفة مهمتها الأولى وهي كونها فضاء التدرّب على التفكير وتقنية العرض

---

(1) نسبة إلى بيرون (Pyrrhon) 360-270 ق.م، مؤسس المذهب الشكي. (المترجم).



الشفهي والجدلي المُنظَّم. أُظنُّ أنها الطريقة المثلى لجعل الطلبة يهتمُّون بالفلسفة ولجعل دروسنا حيوية ودينامية.

علاوة على ذلك، تُبيِّن بعض البراهين انسجام ووجاهة برنامجي. بالفعل، يبدأ اليوم العديد من تلاميذ الثانوية النهائي بالتساؤل حول فائدة الفلسفة، خاصَّة وأنهم يدرسونها سنة واحدة، وبعد حصولهم على شهادة البكالوريا، ليست لهم الفرصة في متابعتها، إلا إذا اختاروا كُليَّة الآداب (هنا أيضاً ليست الفلسفة بالنسبة إليهم سوى مادَّة اختيارية) وخصوصاً دراسة الفلسفة. لا بُدَّ من توضيح مسألة: في الوقت الذي تتسارع فيه الأمور، والذي يتطلَّب فيه كل تعليم أن يستجيب لضرورة مهنية في التأقلم السريع، تبدو الفلسفة على الهامش. تتطلَّب هذه المادَّة الوقت والسَّعة. ولا يمكن كسب الحكمة بشكل فوري. فهي تقتضي المثابرة والصرامة الفكرية والمواظبة. كما يُحدِّد هيغل<sup>(2)</sup>:

---

(2) جيورج فلهلم فرديريش هيغل (1770-1831). فيلسوف ألماني تحمل أعماله على نوعين من القراءة: تعتبر القراءة الأولى أن المعرفة المطلقة هي الغاية النهائية لكل تاريخ بشري؛ وتُبيِّن القراءة الثانية أن المشكل المركزي هو تحقيق الإنسانية في ذاتنا وإنجاز الإنسية في التاريخ.

«باختصار، الحديث عن الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها العالم، لنلاحظ بأن الفلسفة تأتي دائماً متأخرة. بوصفها تفكيراً حول العالم، تتبدى فقط عندما يستوفي الواقع سيرورته في التكوين وينتهي منه. ما يُعلّمه المفهوم، يُشير إليه التاريخ بالضرورة نفسها: ففي نُضج الكائنات يظهر المثل الأسمى أمام الواقع وبعد أن أدرك العالم نفسه في جوهره، وأعاد بناءه في شكل إمبراطورية الأفكار. عندما ترسّم الفلسفة رمادها على الرّماد، فإن ذلك دلالة على أن الحياة وصلت إلى الشيخوخة. لا يمكن تجديد شبابها بالرّمادي فوق الرّمادي، بل معرفتها فحسب. لا تبدأ بومة مينيرفا في الطيران إلا بعد أن يرخي اللّيل سدوله»<sup>(3)</sup>.

تدعو الفلسفة إلى التّفكير حول أسس المعرفة، لكن تُشكّل أيضاً تأملاً نقدياً حول شروط قُدرتنا على الأشياء وأشكال تطبيقها. لكن، بمجرد أن تُكتسب، فهي تُساعد على التأقلم مع الوسط الذي نتطوّر فيه. تتطلّب تفكيراً أخلاقياً حول الدور الاجتماعي لكل فرد، وحول إدارته للوضعيات التي قد يوجد فيها. لذا، تبدو [الفلسفة]

---

Hegel, *Principes de la philosophie du droit*, Préface, éd. Gallimard. (3)

متأخّرة، ترمُز إلى اكتمال الفكر. تُدكّرنا بومة مينيرفا<sup>(4)</sup> بذلك. تأخذ طيرانها في المساء عندما ترتفع فوق الأشياء. عندما يتوقّف الناس عن العمل ويخلدون إلى النّوم، تستيقظ البومة. ينشأ الفكر متأخّراً، لأنّه يستحضر السّعة الضرورية لفهم الواقع ومن أجل التعقّل والحكمة.

لكن هناك غسق ثانٍ، وهو الذي يسبق طلوع الشّمس. هذا يدل على أن التفكير يساعد على الاستبصار واليقظة. يُحقّق الإنسان المتأمّل والحذر تقدّماً أساسياً بالمقارنة مع معاصريه. حتى عندما يستيقظون، فهم دائماً نائمون، فكرهم مشوّش؛ بينما الوعي الفلسفي في ذروته. ينبغي الكثير من الوقت لكي يستيقظوا. أما المتمرّس على الفلسفة، فهو مُتقدّم عليهم، على اعتبار أنه يصل متأخّراً، لكنه الأوّل من ينتبه. من غسقى إلى آخر، ينتبه الفكر، إنه كائن النباهة. لكن لنترجع إلى التحليل: لقد عاينتُ بالتّجربة أن بعض تلاميذ الثانوية ينوون التوجّه نحو هذه المادّة في مشوارهم الجامعي. هناك ما يمكن

---

(4) بومة مينيرفا المعروفة برباط أثينا هي طير الحكمة. قام الإغريق بنقش صورتها على نقودهم (إلى غاية اليوم على اليورو). كانت رباط أثينا رفيقة إلهة أثينا، إلهة الإستراتيجية والفكر الفلسفي. إنها إذاً رمز الفلسفة.

قوله حول ذلك، لأن من المفروض أن تجد الفلسفة مكاناً لها في كل شُعبة وتخصُّص جامعي، وإن كان ذلك على سبيل الاختيار. للأسف، تبقى المنسي الكبير ولا تشغل سوى حيِّز زماني ومكاني ضئيل في البرامج الجامعية. مع أن الفلسفة تدعو إلى التفكير في كُليَّة المعارف.

في العلم، يمكن مباشرة تأمل فلسفي حول الاستمولوجيا، وحول التاريخ الفلسفي للعلوم والتقنيات. لأن العديد من طلبتنا يستعملون نظريات فيثاغورس وطاليس ويستحضرون ليبنتز وغاليلي ونيوتن ونظرية النسبية دون أن يربطوا ذلك بتاريخ العلوم. في الاقتصاد، يمكن للتفكير الأخلاقي حول المال والمؤسسات والتجارة العادلة أن يجد مكانه. في كُليَّة الحقوق، التأمل حول الفلسفة السياسية والعدالة أمرٌ أساس. القائمة طويلة ولا يمكنني استحضار كل الشُّعب التي يكون فيها تدريس الفلسفة مُثرياً للنقاش.

هناك ملاحظة أخرى محزنة وهي الاستماع إلى تلاميذ الثانوية في نهاية السنة يقولون بأن «الفلسفة لم تُفدهم في شيء». لم يعوا أهمية التفكير وما تضيفه الفلسفة في فهم الإنسان ودوره في العالم. هنا أيضاً،

يتطلب الأمر إصلاحاً في التعليم مقداره ثلاث سنوات،  
يجلب لكل واحدٍ الوعي بأهمية الفلسفة وفائدتها ودورها.  
نلاحظ ظاهرة جديدة وهي أن الفلسفة تمَّ إدراجها في  
شكل ورشات في مختلف الثانويات وفي بعض الجامعات  
للزمن الحرّ، موجّهة للأطفال والمراهقين لتكمّل التعليم  
الفلسفي المخصّص للكبار. هذا يشهد على تغيير وإرادة  
في فتح أفق التفكير للناشئة من الصغار، من أجل  
مساعدهم على التأمل في الحياة. خصوصاً وأن الأطفال  
يطالبون بذلك، ويبدون قدراً معتبراً من الفضول تجاه  
الفلسفة.

نلاحظ بأن ثمة سوقاً فُتحت اليوم بالمقارنة مع  
ازدياد التأليفات والقصص الفلسفية المصوّرة التي تملأ  
رفوف المكتبات والموجّهة للصغار. ما يهّم قبل كل  
شيء، هو أن الأطفال يطرحون أسئلة وجيهة، وبتطوّر  
العادات والأعراف والتقنيات، يمتلكون نُضجاً أكثر فأكثر.  
هل معنى ذلك أن أطفال اليوم يختلفون عن أطفال  
الأمس؟ بكل تأكيد. منذ الصّغر، هم غارقون في عالم  
تقني يغلب عليه المال والمردودية. أضحت وسائل التبادل  
والنقاش افتراضية وأرباب العائلة أقل حضوراً في  
حياتهم. تعرّضت العائلة إلى تحوّلات عديدة: مرگبة،  
مفكّكة، ثم مرگبة من جديد.

المشاكل الاجتماعية والتلفزة بالعنف الذي تبثه وألعاب الفيديو والهاتف النقال هي كلها ظواهر مُربكة. غزت مشاكل الكبار الواقع اليومي للأطفال وتلوّث وجودهم. إنهم ليسوا في مأمن وغالباً ما يتألّموا من نقص الفهم والتواصل. تفتح ورشة الفلسفة فضاءً من الحرية، يُعبّر فيه كل واحدٍ بكلماته الخاصة عن الأمور التي تُقلقه وي طرح الأسئلة. تُعرّض بعض الأجوبة ويبقى البعض الآخر معلّقاً. لا مشكلة في ذلك، لأن الجواب يأتي بالتدرّج وليس دُفعةً واحدة، وربما لا يأتي وهذا لا يُشكّل مشكلة في حدّ ذاتها.

هذا بالضبط ما ندعوه التّفلسف، وهو التّساؤل دون انتظار جواب بالضرّورة. بعض الحلول يمكنها أن تكون مؤقتة كذلك. الوعي بذلك يجعل الأطفال مطمئنّين. من جانب آخر، في وقت الشّباب، أي بعد الخروج من مرحلة المراهقة، ليس من الضّروري دراسة الفلسفة في الإطار الحصري للمدرسة. وإن كان المعلّم ضرورياً، يُساعد في فهم المفاهيم وضبطها، ما يهّم هو ممارسة الفلسفة والتدرّب على التفكير للعيش الأفضل. ما يهّم هؤلاء الشّباب هو اقتناء ثقافة فلسفية صلبة، أي المعرفة النظرية. لأن تدريس الفلسفة من شأنه أن يُسهم في الازدهار الشخصي لكل فرد في كل ممارسة، أي في النظام العملي.

بتطبيق التعاليم الفلسفية، يمكن للإنسان أن يضع بينه وبين الانفعالات مسافة معتبرة. تساعد الفلسفة على مجافاة الرغبات، ومن ثمّ، تساعد على تحكّم أفضل في الذات. تقترح الفلسفة الأبيقورية تحليلاً وفهماً خاصاً للرغبات. من أجل تنظيم سليم للسلوك العاطفي، فهي تُميّز تراتبها بالمقارنة مع ما هو ضروري للإنسان وما هو مُضر ينبغي الانصراف عنه:

«ينبغي إدراك بأن من بين رغباتنا، البعض طبيعي والبعض الآخر باطل، ومن بين الرغبات الطبيعية، بعضها ضروري والبعض الآخر طبيعي فحسب. ومن بين الرغبات الضرورية، هناك ما يُجعل للسعادة، وهناك ما يُجعل للطمانينة المتواصلة للجسد، والبعض الآخر للحياة ذاتها»<sup>(5)</sup>.

يؤكد أبيقور<sup>(6)</sup> على أن ثمة رغبات طبيعية وضرورية،

(5) Épicure, *Doctrines et Maximes*, Lettre à Ménécée, éditions Hermann, p. 100.

(6) أبيقور (341-270 ق.م)، فيلسوف يوناني ومؤسس المدرسة المفتوحة المسماة: الحديقة. كان يحيا بداخلها برفقة أصدقائه وتلامذته. ما وصل إلينا هو فقط ثلاث رسائل وبعض الأمثال

مثل الأكل والشرب والنوم والإنجاب. فهي حاجات حيوية، تحفظ للجسم صحته وللنفس أمانها. الرغبات الطبيعية غير الضرورية هي ما ينبغي الاعتدال فيه، ويكمن في الاقتناء الاستثنائي لبعض الترف والمُتَع الإضافية القليلة. فهي لذات يتوجَّب الاعتدال فيها، لأنها قد تؤدِّي إلى التَّبعية والإسراف، وقد تُسبِّب بعد ذلك الآلام، إذا رُفِضت أو افْتُقِدَت:

«رؤية حسيِّفة حول هذه الرغبات من شأنها أن تجلب الإيثار أو الأشمئزاز لصحَّة الجسم، ولطمأنينة النَّفس، لأن في ذلك كمال الحياة السَّعيدة. تهدف أفعالنا لاستبعاد الألم والخوف. عندما نتوصَّل إلى ذلك، تهدأ عاصفة النَّفس، ويتوقَّف الكائن الحي عن النزوع نحو ما ينقصه،

---

التي تُلخِّص مذهبه. فهو ينصح بالسعادة الزهدية التي تناسب التحكُّم في الرغبات. بالنسبة إليه، تكمن السعادة في طمأنينة النفس. كما يوضح ألان: «الأبيقورية التي اختزلت ظُلماً في أنانية مشينة، هي مادية طوعية، هدفها التعافي من الخرافات والأوهام، وكل أشكال الحُمق والانفعال، وما يبقى في النفس هو الخيرات الحقيقية والمعرفة نفسها والأمن مع الذات والصدقة».

Alain, Définitions, in *Les Arts et les Dieux*, La Pléiade, Gallimard, p. 1055.



ويتوقّف عن البحث عن شيء يُكمّل به راحة  
النفس والجسم. نشعر وقتها بالحاجة إلى المتعة  
وبغيابها يأتي الوجد؛ وعندما لا نتألّم، لا نشعر  
بأية حاجة للمتعة»<sup>(7)</sup>.

يتميّز المجتمع الاستهلاكي المعاصر برفض  
الأبيقورية. تولّد الرغبات وحب المال والجاه والبحث  
عن المؤثّرات القويّة والمتجدّدة على الدوام، سباقاً  
محموماً نحو الاستهلاك، وشاللاً من الأمنيات الحادّة  
التي تنتظر التحقيق. في النهاية، يبحث الشاب عن إشباع  
رغبات جديدة والمُتّع السهلة، وهذا يُولّد لديه عدم  
القناعة. من جانب آخر، الشاب الذي يُحرّكه إشباع  
رغبات جديدة، يمكنه بفقدان التأمل والتريث أن ينفعل  
بالحماس المفرط ويُخطئ في أهدافه. نتيجة ذلك أنه  
يبحث عن المجد والشهرة والغنى والنجاح السهل ولا  
يُسهم هذا كله في تحصيل السعادة. تتيح الفلسفة للشاب  
سبق المستقبل برويّة وتبصّر، والقيام بخيارات معقولة.

لا شك أن الشباب يمكنه أن يكون عائقاً أمام  
السعادة إذا كانت الخيارات طائشة ومتحمّسة. إنها تولّد

---

Épicure, *Doctrines et Maximes*, Lettre à Ménécée, p. 100.

(7)

اضطرابات في الجسم وفي النفس:

«ليست القصوف المتمادية، لذات الشباب من بين الذكور والإناث، والأسماك والمأكولات التي تُوفّرها المائدة الفاخرة، هي التي تُولّد الحياة السّعيدة، ولكن العقل النبيه الذي يُفتّش بدقّة عن دوافع ما ينبغي اختياره وما ينبغي تفاديه، والذي ينبذ الظنون الباطلة التي يستبدُّ بها الاضطراب بالنفوس»<sup>(8)</sup>.

تتيح الفلسفة إيضاح السبيل المؤدّي إلى السّعادة وتفادي الطريق التي تؤدّي إلى الغبن. تتميّز الفلسفة العملية بنوعٍ من التعقّل، تقدير ما هو خيرٌ أو خطير للإنسان:

«بحكم أن اللذة هي الخير الأساس والفطري، لا نبحث عن كل لذة؛ هناك حالات نقفز فيها فوق العديد من اللذات إذا كانت تُسبّب لنا الملل»<sup>(9)</sup>.

مكتبة

t.me/soramnqraa

Ibid., p.103.

(8)

Ibid., p.101-102.

(9)

هكذا تسعى الفلسفة إلى زرع الاعتدال في السلوك وتجسيد الحكمة. يكمن التّفلسف في العيش في نوع من الزّهد. لا بدّ أن أوّضح بعض الغموض الذي استبدّ اليوم بمعاصرينا. العديد من الأشخاص يقولون عن أنفسهم بأنهم «أبيقوريون» وهذا يعني في منطقتهم التمتع بالحياة وبكل اللذات دون اعتدال. غير أن هذا عبارة عن تفسير خاطئ وإسراف في التعبير وسوء في التأويل. في الحقيقة، أن تكون أبيقورياً معناه أنك تعيش بتلطيف شهواتك وبتحديد حاجاتك. يتوصّل الحكيم إلى حالة من التجرّد إزاء كل الغوايات وبيتهج برفع الألم عنه:

«يُطالب الجسد بحزم ألا يتألّم من الجوع والعطش والبرد. من هو في مأمن من هذه الحاجات وله الأمل في أن يبقى كذلك في المستقبل، يمكنه أن ينافس في المقام والسّعادة زيوس»<sup>(10)</sup>.

السّعادة هي قناعة الكائن الذي لا يُعاني من أيّ اضطراب. وعليه، إذا اعتدل الشاب في عواطفه ورغباته، فهو يتوصّل إلى التصرّف بحكمة. يبتعد عن طيش الشباب

نحو الفعل المتعقل. تصبح أفعاله محسوبة، وهذا يُلطف تصرفه ويتيح له التغلب على العوائق المرتبطة بشبابه. تنصح الأخلاق الأبيقورية بالسلوك الزهدي بالتخلي عن الرغبات الباطلة. يبتهج الإنسان النبيه بألا ينقصه شيء. وعليه، إذا كان الشباب يتميز أحياناً بالسلوك المتهور، فإن الحكمة الفلسفية تدعوه إلى الاعتدال في حماسه وعنفوانه. تتيح ممارسة الفلسفة تعويض النقص في التجربة المرتبط بمرحلة الشباب. فهي تُحضّر الشاب، حسب أبيقور، لأن يكون: «جريئاً أمام المستقبل أكثر من الشخص المُسن»<sup>(11)</sup>. يرى أبيقور أن الشاب يمكنه أن يكون قلقاً أمام المستقبل. فهو يخشى سوء الحظ والفشل وقوة الآلهة. التفكير بالحكمة معناه تفادي الحيرة ومجابهة مخاطر الوجود.

تتعزز اليوم المخاوف بمقدار مع تزداد المصاعب الاجتماعية. يخشى الشاب البطالة والإقصاء والهشاشة المادية. غالباً ما يُلام على عدم خبرته بالأشياء لتسوية رفض التشغيل. يؤدّي هذا الأمر نحو فتور الهمة والحظ من شأن بعض الكفاءات. يشعر الشاب بأنه مُقصى، بينما ينتظر العالم المهني منه أن يُثبت كفاءاته قبل أن يتقلد

المسؤوليات. يتيح الفكر الفلسفي تقييم هذه الخيارات والمكتسبات من أجل التميّز. الشاب الجادّ والمتحمّس والمنظّم له كل الحظوظ في أن يجد العمل إذا كانت مبادراته منسجمة ومنظمة بالجهد والدافع، وتُبرز قدراً من الذكاء والمهارة. لذا، عندما يكون أحدهم متحمّساً ويُبدي نضجاً في مبادراته، تُفتَح أمامه الأبواب بسهولة، حيث أن التّفكير المسبق في خيارات المهنة يسمح له أيضاً بالتوجّه نحو المستقبل.

التوجّه نحو المستقبل هو تعاطي إمكانيات بلوغ الأهداف. يتعلّق الأمر بالتخطيط العقلاني والمتبصّر واختيار الوسائل الملائمة في الظّفر بالنّجاح. على العكس من ذلك، الشاب المتردّد الذي لا يعرف ما يريد، يثير الارتباك والإحراج. تحسين السلوك وجرد المهارات والدوافع الملائمة، من شأنهما أن يُسهما في الزيادة من حظوظ النجاح. المحادثة من أجل التشغيل والمسابقة في الامتحان والمنافسة الرياضية هي كلها أشياء تتطلّب التحضير. ما يهّم هو الوعي بأن لا شيء سهلاً، وأن الموهبة والكفاءة تُكتسبان بالممارسة المتواصلة. وعلى العموم، وراء المظهر الخادع للسهولة، تختفي ساعات طويلة ومضنية من التحضير.

يبدو ضرورياً تغيير الخطاب وردّ الاعتبار لقيم الجُهد والتَّحفيز. تُبرز النماذج التي تتداولها التلفزة-الواقع نجاحاً سهلاً وسطحياً يُفسد عقل الشباب. إنها مجرد وهم. ينبغي بهذا المعنى الاحتفاظ بالروح النقدية لتفادي «الانخداع» بنشيد عرائس البحر المتلفزة! يتعلّق الأمر بتفادي النوم على الأمجاد! يمكن لشباب دينامي ومليء بالحيوية أن يضمن مستقبل مجتمع مزدهر. من واجب كل واحد أن يكون سيّد حياته الخاصة. هذا مفيد لأنه يتعلّق بالحسّ السليم وبالتفكير في الجهود الواجب تكريسها [من طرف الشباب] للتأثير على الواقع وقولته من أجل إضفاء شكلٍ على مهنته وتعليل التزاماته. يتطلّب الأمر الانتباه إلى الحاضر من أجل الظفر بالفرص السّانحة وأن يكون جاهزاً ومتعدّد الوظائف لتقلّد مسؤوليات جديدة.

أخيراً، من الضّروري الوعي بأن النجاح في الحياة الشّخصية والمهنية والرياضية لا يُكتسب سوى بالمثابرة والجهد واستثمار القوى والملكات. وعليه، يُدرك الإنسان بأن بعض الأحداث هي مستقلة عنه، لأنها مشدودة إلى تقلّبات الحظّ أو الجسد أو الطبيعة. أحياناً تأتي الظروف بما لا تشتهي ذواتنا. لا تنفع الخشية منها، بل يتوجّب الأمر مجابهتها بنوع من رباطة الجأش للوقاية من مفاعيلها وتفادي أضرارها. انطلاقاً من استعداد العقل يتمّ

بناء القلعة الباطنية. هكذا يجد الإنسان النبيه نفسه سعيداً  
بداخلها لأن لا شيء يمسُّه في العمق أو يُكدر عليه  
اطمئنانه.

## عند وقت «الشيخوخة»

العجيب أن مفهوم الشيخوخة يبدو مفهوماً منسياً من طرف الفلاسفة الذين لم يُطوِّروه من قبل. يبدو أنهم أرادوا التَّخفيف من هول الموت وتقديم نصائح حول عدم الخشية منه. يُصرِّح أفلاطون: «أليس انعتاق النَّفس هو الهدف الوحيد الذي يسعى إليه الفلاسفة الحقيقيون بعزم وثبات؟ ثم أليس من أجل هذا الانعتاق وهذا الانفصال بين النَّفس والجسد يتدرَّب الفلاسفة؟ فمن السَّخافة أن يتدرَّب الإنسان في حياته على العيش في حالة تقترب نسبياً من الموت، ويجزع عندما يحلُّ عليه هذا الأخير. الواقع أن الفلاسفة الحقيقيين يتدرَّبون على الموت وأنهم من بين البشر الوحيدين الذين لا يُقلقهم الموت»<sup>(12)</sup>. تفسير ذلك أن الحكماء في القِدَم ومن خلال سيرة حياتهم كانوا يُعمِّرون، حوالي الثمانين سنة. كانوا يمارسون الفلسفة منذ الصَّغر. كانت نهاية الحياة تُشكَّل بالنسبة إليهم عبوراً هادئاً يُطبَّقون فيه تعاليمهم.



فكانوا يقضون أياماً سعيدةً، ويواجهون عواقب الشيخوخة باستسلام تام.

هذا يُفسّر المكانة اللائقة بهم في المدينة. كان الشيوخ من بين القدماء والحُكماء يُستشارون، وكان الشُّباب يُحبُّ الاستماع إليهم واتباع نصائحهم. كما يُثبت سيوران<sup>(13)</sup>: «يُصبح الحوار بلا موضوع مع شخص أفلت من مرور السنين»<sup>(14)</sup>. كان القدماء مندمجين تماماً في المجتمع وكان يُستفاد من حكمتهم وخبرتهم. أما اليوم، فقد تغيّرت أمور كثيرة. من وجهة نظر اجتماعية، وفي إطار البحث عن العمل مثلاً، سنّ الخمسين يُنظر إليه على أنه شيخوخة وبالمعنى المبتذل في «فوات القطار»، «الاندثار»، ومن ثمّ شخص «يُعوّض». الخبرة التي كانت وسيلة في النجاح في سنّ الأربعين، تبدو الآن منفية ومحط السُّخرية، ومنزوعة القيمة عمداً. لأن الأقدمية والكفاءة تُكلّفان باهظاً، كما يرى البعض ممّن

---

(13) إميل ميشال سيوران (Emil Michel Cioran)، 1911-1995، مفكّر روماني، تتركّب أعماله من أقوال تهكّمية وشكّية ومتشائمة. يرتبط قلقه الفلسفي بلا شك بصعوبة فهم الإنسان والعالم، بغياب الإدراك الجيّد لهما.

(14) «أناذي كل من أحبني أن يتكرّم عليّ بالشيخوخة».

Cioran, *De l'inconvénient d'être né*, Folio/Essais, p. 219.

يمكنهم إفادة مؤسّساتهم بهما؛ ولكنهم للأسف على وعي بأن المؤسّسة تحت ضغط المقتضيات الصّارمة لأسواق البورصة الاقتصادية والعالمية. لقد أدركوا أن صورة الشّاب من وجهة نظر التّسويق هي المفضّلة.

مع أن بارتفاع متوسّط العمر والصّحة الجسدية والعقلية للكهول، يبدو «التّمييز» بلا مُسوِّغ، بل لا يُطاق في الوسط المهني. لأن سنّ الشّيخوخة الحقيقية تراجع بشكل معتبر. بل هناك عدّة شيخوخات. نلج في السّتين في سنّ واضح، لكن نحتفظ بالحركية والفاعلية. باختصار، نبقى «شباباً مُسنّين». تعادل الشّيخوخة الحقيقية سنّ الثمانين. من جهة أخرى، ثمة واقعة اجتماعية: كان القديما يشيخون في عوائلهم، في المدينة. أما اليوم، في المجتمعات المعاصرة، خصوصاً في الدول المتطوّرة، يتعرّض الأشخاص المسنّين إلى الإقصاء ويوضعون في دور العجزة والملاجئ وأماكن الاحتضار. يشعر هؤلاء المسنّون بعيداً عن أهلهم بعدم جدوى وجودهم ويشعرون بالإقصاء المسلّط عليهم.

هناك صورة اختزالية حول الشّيخوخة يتمّ التّرويج لها اجتماعياً. يُظهر الإشهار الشّيخوخة بالإشادة بطقم الأسنان وبتبيان الطريقة في تفادي الانفلات البولي وتفادي السقوط في المغطس أو السّلم والإشادة بوصايا

الجنائز. بالموازاة مع ذلك، يتم الترويج للكيفية التي نحتفظ فيها بالشباب (كما ولو كانت هنالك معجزة بشأن ذلك) عبر تناول الفيتامينات والأدوية وأوميغا 3 والجراحة التجميلية والأشياء المصطنعة التي تحافظ على النشاط الجنسي، إلخ. باختصار، كل ما من شأنه أن يدرأ الشيخوخة. لا تُظهر الجرائد المُسنِّين سوى في وقت الحرِّ الشَّدِيد، أو عندما تحتفل كبيرة السنِّ الجديدة بعيد ميلاد يفوق المئة سنة، أو أيضاً التذكير بأن عدد قُدماء الحرب العالمية الأولى<sup>(15)</sup> على قيد الحياة يتناقص بدون أن يُحتفل بالجنود القدامى بوصفهم أبطال الأمة. وكأنَّ الشَّيخوخة شيء سيِّء ومُخجِّل، ينبغي ستره.

يمكن أن نتساءل: لِمَ لا إظهار شيخوخة دينامية ولها روح المبادرة؟ على أيَّة حال، ليست الشَّيخوخة مرادف البؤس والتوحد والتزهد. يجد بعض الأشخاص المتقاعدين الوقت لمبادرة نشاطات جديدة: السَّفر،

---

(15) يُسمُّون Les Poilus وهم الجنود الفرنسيون الذين خاضوا الحرب العالمية الأولى، وهو اسم ينعت الشجاعة والفحولة. اليوم الذي يُحتفل بهم هو الحادي عشر من نوفمبر. لم يبق منهم أحد على قيد الحياة اليوم، آخرهم لازار بونتيتشلي (Lazare Ponticelli)، من أصول إيطالية، توفي في السابع عشر من مارس 2008. (المترجم).

الدِّراسة، الرِّياضة، العمل الجمعي، إلخ. لا مرأى أن الإنسان المدفوع بدوام الحياة، لم يأخذ الوقت الكافي في الوقوف على وجوده الخاص ولم يأخذ مسافة بينه وبين ذاته. بالفعل، بالنسبة للشباب، «المسنُّ» هو جدُّه وجدَّته. يبدوان بسنَّهما بعيدَيْن عَنَّا، بينما بالروابط العائلية والعاطفية هم أقرب مِنَّا. ثم عندما ننضج بعد المراهقة ونصبح كهولاً بدورنا، نرى والدينا بلُطف، نراهم يتقدَّمون في السنِّ. يبقى هذا على مسافة مِنَّا. لكن بمقدار ما تتغيَّر وتدهور، نعي بأننا نشيخ أيضاً. يُبرز لنا الجسد علامات إنذار بأننا نتقدَّم في العُمر، نحاول تجاهل ذلك، لكن لا نفرُّ منه. علينا إذاً القبول بالأمر الواقع.

ما كان يبدو بالأمس سهلاً، يظهر اليوم صعب التحقيق وأكثر إجهاداً. ومع تقدُّم السنِّ، من الأجدى أن ندرس الوضع وأن نُقيِّمه بوعي ونباهة. في الحقيقة، يعي الإنسان أن الزمن فات وأن الحياة على وشك الانقضاء وعليه أن يحيا دون أن يُفكِّر في الموت المحتوم. فالخشية المتحكِّم فيها تُشجِّع على يقظة الوعي. كذلك، يُشجِّع النُّضج الذي أتاح هذا الوعي على حساسية مثلى في الابتهاج بالمُتَع البسيطة التي تُسهم بفاعلية في السَّعادة. من جانب آخر، وبفضل التقاعد أو كما يقول

مونتاني<sup>(16)</sup>، مع الشَّيْخوخة، تأتي نهاية «الانشغال» (embesognement)، ويتناسب هذا حسب رأيه مع السنِّ الذي يُخصِّص فيه الإنسان الوقت «للتَّسلية» بكلِّ حُرِّيَّة. هذا ما نُسمِّيه اليوم بسنِّ التَّقَاعُد. مكتبة سُر من قرأ

يكون للإنسان في هذا السنِّ الوقت الكافي، ليس فقط للاستراحة بل أيضاً لتثقيف ذاته (عدد جامعات الزمن الحرِّ التي ظهرت في السنوات الأخيرة، شهدت على الطاقة الفكرية لهؤلاء المسنِّين) والاعتناء بجسده بممارسة النشاطات الرياضية الملائمة: «العقلُ السَّليمُ في الجِسْم السَّليم!» يقول المثل ويكتسي دلالة عميقة. من جانب آخر، وبالنَّظر إلى ازدهار الأجداد، نرى الدور الاجتماعي المهم الذي يُؤدُّونه إزاء أبنائهم. إنهم مستودع المعرفة، يُسهمون في نقلها ويُشكِّلون تراثاً ثقافياً ذا أهميَّة بالغة. هؤلاء المسنُّون الذين يعتنون اليوم بأحفادهم، لهم الوقت يُخصِّصونه لهم. غداً، لا يمكنهم ربما شُغل هذا الدَّور العائلي، لأنهم يسعون إلى حل مشكلات التَّقَاعُد، وليس لهم الوقت الكافي لأداء دور المُربِّي لأبنائهم.

---

(16) ميشال دو مونتاني (Michel de Montaigne) 1533-1592، فيلسوف شكلي، رسم بفلسفته الإنسان في شرطه الخلاب والبنيس.

معنى ذلك أن دورهم مهمٌ للغاية في المجتمع. دور بسيط لكنه ناجع، يُفتقد غداً عندما يرحلون. لكن لنتفادى هنا كل شكلٍ من الكارثية.

تُناسب الشَّيخوخة اليوم المرحلة التي يُصبح فيها الموت محبباً على الحياة. إذا كان التَّفلسُف هو تَعَلُّم الإِماتة، كيف يمكن للفلسفة بأن تُعَلِّم أيضاً الشَّيخوخة؟ أظنُّ أنه ينبغي التَّفكيرُ ملياً حول الشَّيخوخة قبل أوانها للتأقلم مع ما تُمثله. يمكن أن نستحضر هنا مبدأ السَّبِق الذي يُشجِّع على الاحتفاظ في الزَّمن. غالباً ما يُقال بأن البعض يُفضِّل الموت على أن «يشيخ بصعوبة». لكن ما معنى عبارة «أن يشيخ بصعوبة»؟ إنها الخشية من الضَّياع بمعنى فقدان الصَّواب (ألزهايمَر) واضمحلال القُدرات الذهنية والجسدية، بمعنى إدراك التَّدهُور الشَّخصي:

«هذا الجسد الذي كان في الماضي وفيَّاً لي، أصبح جاحداً ولا يتبعُني، وتوقَّف عن كونه شريكاً في الحياة. إنني مرفوض، مغدور، منبوذ، ما مصيري إذا جاءت العاهات القديمة لتُصاحبني ليلاً ونهاراً؟»<sup>(17)</sup>.

هذا يُفسَّر لماذا يُفضَّل البعض الموت على الحياة، لأن كل الأسباب التي يخشون بها من الشَّيخوخة الصَّعبة، تجعل فكرة الموت عذبة وفكرة العيش لا تُطاق. فهم يربطون الشَّيخوخة بالعيش الأليم. غير أن الحكمة الفلسفية تكمن في حُسن التَّخَلِّي عن الشَّرط الجسدي والعقلي والجنسي الذي كُنَّا نتمتَّع به في السَّابق. يكمن السُّلوك الرُّواقي<sup>(18)</sup> في الانصراف عن كلِّ حينٍ إلى شبابنا الماضي وعن تناقُص قُدراتنا، وسبق فكرة انخفاض طاقتنا:

«المزيَّة الأكيده في الشَّيخوخة هي الانتباه إلى التَّدهور البطيء والمنهجي للأعضاء؛ تبدأ كلها في الانهيار، البعض منها بشكل ملحوظ، والبعض الآخر بشكل كتوم. فهي تنفصل عن الجسد، مثلما ينفصل الجسد عنَّا: يفلت منَّا، يفرُّ ولم يعد ينتمي إلينا. إنه الخائن الذي لا يمكننا التَّنديد به، لأنه لا يتوقَّف في أيِّ مكانٍ ولا يخدم أيِّ شخصٍ»<sup>(19)</sup>.

يتعلَّق الأمر بالتَّخَلِّي الواقعي عن فكرة البقاء دوماً

(18) هو سلوك يضع مسافة بيننا وبين ما يُمُسُّنا في ذواتنا، ببناء قلعة باطنية تقاوم كل تأثر بالعالم الخارجي.

(19) Cioran, *De l'inconvénient d'être né*, p. 237.

بصحة جيّدة. يتطلّب الأمر في النهاية توقُّع الانحطاط. تكمن الشَّيخوخة أيضاً في الشعور بأن حميَّة الحياة تتحطَّم، وأن الشَّيخوخة تستهلك إرادتنا إلى غاية جعلها غير مُجدية. طبعاً، بالنسبة للذي لم يتهيأ لذلك، يشعر بنوع من الظلم والكآبة في عدم شُغله دوراً اجتماعياً منوطاً به. علاوة على ذلك، إذا أصيبت الذاكرة بعطب، فإن الشَّخص يعجز عن نقل ما يريد إبلاغه، ويشعر بالتفاوت في المبادلات. إذا كان بالأمس يعمل ويتبادل ويمنح من وقته ومن شخصه، يُصبح اليوم منعزلاً وأقل فعالية. يضع هذا فقدان في الملكات الجسدية والعقلية الذي يكشف عن العجز، الفرد أمام مشكلة التَّبعية المتنامية إزاء الغير. يبقى فقدان الاستقلالية المحنة الحاصلة للإنسان الذي هو كائنٌ من أجل الحرِّية ومن أجل المسؤولية، هو الذي أفنى حياته في الشعور بالمسؤولية والظفر بالاستقلالية، والذي غالباً ما تمَّ تذكيره بأن عليه أن يكبُر وأن يتحمَّل مسؤولية خياراته.

يُضاف إلى ذلك أن الآخر يحيلنا إلى صورة طبيعتنا الشَّائخة. تلکم هي تراجيديا هذا الشَّرط الإنساني. كذلك، معظم النَّاس الذين لم يُفكِّروا في شيخوختهم وتفادوا ذلك، يرفضون في الغالب مغادرة ديارهم ويحتاطون من مساعدة الآخرين لهم. وعندما تندهور



حالتهم الجسدية وتجعلهم غير قادرين على العناية بأنفسهم في ديارهم، يعيشون بامتعاض وضعهم في ديار العجزة. يثور المُسنُّ ضدَّ وضعيته الجديدة التي لم يتهيأ لها ويفقد الصَّبر على ردِّ الجميل. يتأسَّف على فقدان الحيوية وعلى الغياب، بينما لم تبرح إرادته مكانها. هو الذي كان يربط نشاطاته بمكانته الاجتماعية وبسعادته، تُجبره وضعيته في السنِّ المتقدِّم على الفتور. غالباً ما يُصاحب ذلك فقدان الذاكرة، الذي يمنعه من امتلاك معيشه وماضيه وذاكراته، ولا يمكنه حتَّى امتلاك وجوده في رُمته وكما يتمثله. لم يعد قادراً على إدراك علاقات وجوده بالزمن ولا يمكنه أن يقول ماذا سيفعل.

تفرغ الذاكرة تدريجياً، التي تُشكِّل دوام الماضي فينا والاحتفاظ بما فعلناه في ذواتنا. يذبل الجانب الأزلي الذي نحفظ به في ذواتنا، أي الزمن الآفل الذي يشتمل على ذكرياتنا. مع أن المنطق والحكمة يريدان أن نستبق هذه المشكلات، وهذه الفكرة في الانحطاط، لأن الشيخوخة تخصُّ الجميع، ما عدا في حالة ما إذا حلَّ الموت مبكراً. يتعلَّق الأمر بترويض فكرة الشيخوخة والقول: «عَوَّد نفسك على فكرة الشيخوخة. هكذا تشعر بالرضى في أنك كنتَ الخيط الهادي بين مختلف الأجيال، بين الأفراد الذين صادفتهم في طريقك أو

التقيت بهم وأحببتهم. يمكنك أيضاً أن تُدرك بأن الحب الذي وزَّعته من حولك يعود إليك لأنك لا تشيخ بمفردك، يعتني بك الآخرون». النتيجة هي أن على كل واحد أن يجد عزاءه في الأوجاع المرتبطة بالشيخوخة بسبقها والتحضير لها وبالتخفيف من هولها.

نستنتج من ذلك أن عندما نكون شباباً، علينا أن نُحبَّ «والدينا»، لأننا نتعلَّم كيف نتعامل مع الغير بالطريقة نفسها التي نريد أن يعاملنا بها. ذلكم هو درس التواضع الذي تُعلِّمنا إيَّاه الحياة. علاوةً على ذلك، ينبغي أن نُدرك، وعلى خلاف ممَّا يُروَّجُه الخطاب الاجتماعي والإعلامي، بأن السَّباب الأبدي عبارة عن أسطورة. لذا، جُهدٌ كبير في التَّسامح ضروري وإن كان من أجل محبة الآخر ومصاحبته إلى نهايته. يُذكِّرنا الكبار بأننا، نحن السَّباب، ما وصلنا إليه، كان بفضلهم. لقد كانوا أعمدة طفولتنا واليوم، عندما تنقلب الأمور، نُصبح السَّنْد الذي تتكئ عليه شيخوختهم. إذا تأمَّل كلُّ واحدٍ في هذه النَّصائح، فإنه سيجد مكانه بجانب الكبار لتفادي أن يقعوا في التوحُّد والشَّقاء المرتبط بسنَّهم المتقدِّم، ولا يخشى من شيخوخته بالذَّات، لأن لديه الثَّقة في الآخر، الذي يُقدِّم له يد المعونة عندما يُصبح مُسنّاً. يكمن تغيير الرؤية الشخصية والجماعية تُجاه المُسنِّين في تغيير شروط الحياة لهؤلاء الكبار.

2

من أجل العيش الرغد



## عدم الخشية من الموت

يُدمج التّصالح المنسجم بين المعرفة والحكمة في السلوك والممارسة فنّاً في العيش. والفلسفة بالمقارنة مع الاستدلال الذي قدّمته هي الدّواء الناجع لكل أوجاعنا ومشاكلنا. بوصفنا كينونة من أجل الموت، أفضل إدراكٍ للحياة يمرُّ عبر فهم التّناهي: «الفلسفة هي تعلّم الإماتة»، لأن عدم الخشية من الموت أو التّعوّد على قدومها، هو تعلّم العيش الرّغد. من تجمّدت قواه وثبت على فكرة الموت، فهو ميّت قبل أن يحيا. يكمن التّفلسف في ترويض فكرة الموت من أجل التفرّغ للحياة. يتعلّق الأمر بإدراك اعتبارية الحياة ثم إثراؤها وإضفاء المعنى عليها. خلال فترة الوجود، يتأمّل العقل ويتحقّق بينما تتحرّك المشاعر بشكلٍ أصيل. لذا، يتمتّع الإنسان المتحرّر من القلق الوجودي أكثر بالحياة، ويبتهج بما تُوفّره له. يتفرّغ لها كليّةً.

من جانب آخر، من شأن الوعي المتعقّل بالموت وليس الانفعالي أن يُشجّع على الانتباه للحاضر. معرفة أن أيّامنا معدودة، تُولّد إرادة المثابرة واستمثال اللّحظة

الرَّاهنة. على شاكلة سيزيف<sup>(20)</sup> الذي يُدحرج الصَّخرة،  
يجعل الإنسان من الحياة مهمَّته. يضع انتباهه عليها.  
يتعلَّق الأمر بالحضور في العالم للانخراط في الإنسانية  
جمعاء التي ينتمي إليها:

«كل البهجة الصَّامته لسيزيف ماثلة. مصيره له  
لوحده. الصَّخرة هي شيء. كذلك الإنسان العبثي،  
عندنا يتأمَّل في همِّه الكبير، يُسكت كل الأوثان.  
في فضاء دخل فجأة في الصَّمْت، ترتفع آلاف  
الأصوات الصغيرة والمذهولة من الأرض. دعوات  
لا شعورية وكتومة، دعوات لكل الوجوه، إنها  
المعكوس الضَّروري وثمر الانتصار. لا شمس بلا  
ظل، وينبغي معرفة اللَّيل. يقول الإنسان العبثي  
نعم ولا يتوقَّف جُهدَه. إذا كان ثمة مصير خاص،  
فلا وجود لَقَدْرٍ أسمى أو ثمة واحدٌ يعدُّه محتوماً  
ودنياً. أما الباقي، فهو يعرف بأنه سيِّد أيَّامه. في  
هذه اللحظة اللطيفة التي يلتفتُ فيها الإنسان إلى

---

(20) يُعدُّ سيزيف المؤسس الأسطوري لكورنث. يُقال بأنه سجن الموت  
(تاناتوس) أو أنه ندَّد بزيوس، مما أثار غضب الآلهة. حُكم عليه  
بأن ينقل صخرة إلى قمة الجبل. مهمَّة غير مجدية ومتكرِّرة تبنَّاها  
إلى درجة أنه أصبح سعيداً بها.

حياته، يتأمل سيزيف العائد إلى صخرته في تتابع الأفعال بلا رابط والتي تغدو مصيره، يخلقه بذاته، ويتوحد تحت انتباه ذاكرته ويُختم عليه بالموت»<sup>(21)</sup>.

بالتجرّد عن الشقاء أو سوء الحظّ، يمكن للإنسان بأن ينشغل ويُصبح خلاقاً. طبعاً، إذا كان العبث يمنح فلسفة في الصّمم لكائنٍ مفصول ومنغلق في تساؤلات بلا جواب، ينتهي تفاؤل كامو<sup>(22)</sup> بفكرة تحرير السعادة:

«أترك سيزيف في سفح الجبل! يحمل دائماً العبء معه. لكن يُعلّم سيزيف الوفاء الأسمى الذي يتنكّر للآلهة ويرفع الصخور. هو أيضاً يحكم بأن كل شيء على ما يُرام. هذا الكون بدون سيّد، لا يبدو له عقيماً ولا تافهاً. كل بذرة من هذه الصخرة، كل شظية معدنية من هذا الجبل الحافل بالعتمة، تُشكّل بذاتها عالماً. المقاومة

---

(21) Camus, *Le mythe de Sisyphe*, Folio/Essais, p.167-168.

(22) ألبير كامو (Albert Camus) 1913-1960، صحفي وكاتب فرنسي، معروف بفلسفته كردّ فعل لعبثية الوجود، والطابع المحتوم للموت. كتب حول البعد الانفعالي للشرط الإنساني. بقيت أعماله غير مكتملة لأنه توفي فجأة إثر حادث مرور.

نفسها نحو القمم تكفي لأن تملأ قلب الرّجل.  
ينبغي تخيّل سيزيف سعيداً»<sup>(23)</sup>. هذا يكفي لجلب  
العزاء.



## الحرية والمسؤولية: إثبات خلاق للحياة

إذا لم يكن هناك شيء خارج الحياة الأرضية، إذا لم يكن هنالك عالم في الماوراء، إذا كان الإله فكرة بشرية في التخفيف من الآلام، ماذا تبقى لنا؟ العيش، تماماً، وبحدّة. يكمن التّواجد في تدليل عبث الوجود وضمنان الحرّية والالتزام الذي تنطوي عليه. علينا الانتفاع بالحياة (ينبغي فهم «الانتفاع» هنا في شكله المهذب، الزّهدي)، وبكل دقيقة ممنوحة لنا لتكميل أعمالنا، لكي لا نستحي من أيّ فعلٍ من أفعالنا. وعليه، كان سارتر<sup>(24)</sup> يقول: «الموت، هو أن تكون فريسة الأحياء»، وهذا يعني أننا مسؤولون عن مشاريعنا وأن علاوة على ذلك هذه المشاريع هي عرضة لتقدير الآخرين. سواء أكانوا المعاصرين لنا أم الإله نفسه، أفعالنا معروضة أمام نظر الآخرين، تُقيّم تبعاً للذاكرة المحترمة التي تركناها لهم.

---

(24) جون بول سارتر (Jean-Paul Sartre) 1905-1980، فيلسوف

فرنسي معروف بالتزامه السياسي وفلسفته في الحرّية. إنه ممثّل الوجودية. هذا يعني أن الإنسان ليس كائناً خاضعاً للقدر، بل على العكس، تنبثق حياته من سلسلة الخيارات التي يتّخذها.

وإذا لم يوجد تأنيب جنائزي، فإن الكُفَّار يتعرَّضون لعقوبة الأزل أو إدانة الأحياء. هذا يُثبت المسؤولية الملقاة على عاتقنا. نفعل بحياتنا ما نريد أن نفعله بها. وصعبٌ جدًّا لعب دورٍ في مصيرنا بالذَّات!

«ما يُزعج البشر، ليس الأشياء، بل الأحكام التي يُبلورونها حول هذه الأشياء. ليس الموت شيئاً يُخشى منه، لأنه لم يظهر كذلك لسقراط. لكن الحُكم الذي نحمله حول الموت بالتَّصريح بأنه شيء يُخشى منه، هذا هو بالضبط ما يُخشى منه. عندما نكون في حالة اضطراب وحزن، علينا أن نلقي المسؤولية على ذواتنا، وليس على الآخرين، أي على أحكامنا الخاصة. اتَّهام الآخرين بما يحصل لنا من مأسٍ هو من فعل جهلنا؛ تحمُّل المسؤولية الذاتية هو من شيم الإنسان الذي بدأ يعرف؛ عدم اتَّهام الآخر ولا الأنا هو من خصال الإنسان الذي يعرف تماماً»<sup>(25)</sup>.

Épictète, *Le Manuel*, § 5.

(25)

أبكتيتوس (حوالي 50-130م)، فيلسوف يوناني، تكمن فلسفته في مدِّ النصائح من أجل العيش السعيد وفقاً للأخلاق الرواقية.

نحن إذاً المسؤولون عن خياراتنا. في النهاية، لا يمكن أن نضع اللوم على الآخرين أو على الظروف. لا يمكن التحجج بذرائع لتسويغ هفواتنا وأخطائنا في التقدير وتقصيرنا. وحتى سوء النية لا يمكنه أن يُشكّل منفذاً. وعليه، الإنسان الذي يعي خطورة أفعاله، عليه أن يختار بترث وتبصّر ما يريد فعله. لا يمكنه أن ييأس من فوات الوقت لأنه يُدرك أن زمانية وجوده تختصّ به. يفعل بها ما يشاء، لذا فهو يبتكر ويتحدّد بخياراته. على الإنسان أن يفرّ بنفسه من شرطه البائس. تجد بهجة الحياة أساسها في التدخّل في مسار الأشياء والاقتناع بذلك. فهي تُعلّم الإنسان إمكانية أن يكتمل في ذاته. ليست السبب الزمنية ما نتكبّده فحسب، بل كل ما ينقضي بلا رجعة. يدلّ الزّمن الممنوح لي على وعد الإمكانيات المتاحة للمجازرة والتحقيق. فالإنسان ينخرط في العالم، ويمارس فيه حرّيته ويُقوّي علاقته بالكائنات والأشياء. هناك أيضاً «الوعدُ بغدٍ مشرقٍ»<sup>(26)</sup>.

يدعوننا برغسون<sup>(27)</sup> إلى التفكير في الوجود من

(26) العبارة الحرفية هي «الصباحات التي تُغني» (des lendemains qui chantent)، وتُقال للأمل في مستقبل زاهر. (المترجم).

(27) هنري برغسون (Henri Bergson) 1859-1941، فيلسوف فرنسي،

وجهة نظر الديمومة. لا يتحدّد الزّمن بوصفه تتابعاً في اللّحظات المتشابهة في ما بينها، والتي تتسلسل بلا نهاية. ينبغي التفكير في الزّمن من وجهة نظر الاتّصال، لحظات متمايضة لكنها متتابعة، تتسلسل وتؤثّر في الوعي برمته. لا يتعلّق الأمر بزمن السّاعات. يتيح سيلان الزّمن إذاً الإفلات من العبث لإدراك بهجة الخلق في الديمومة. ففي نمط التّنفيذ والإنجاز يتجلّى الإنسان لذاته:

«نربح الكثير عندما نشعر بالبهجة والقوّة. أكثر بهجةً لأن الواقع الذي يُبتكّر أمامنا يمنح لكل واحدٍ منّا بعض المُتّع التي يمنحها الفنُّ لذوي الامتيازات من بين الأثرياء؛ فالواقع يكشف لنا عن الجديد المُتجدّد، الأصالة المُتحرّكة للأشياء، في ما وراء الطابع السكوني والرتيب الذي تُدرّكه حواسنا المُخدّرة بحوائجنا الثّابتة. لكن نصير أكثر قوّة، لأن علاوةً على الخلق الأصلي الذي يتجدّد أمامنا كل يوم، نشعر بأننا نشارك فيه بوصفنا خالقي ذواتنا. باسترداد عنفوانها، تتعزّز ملكة الفعل لدينا. بعد أن كُنّا مقهورين بسلوكٍ طيّع،

---

وضع في قلب نظريته الأنا العميق والباطني، الذي يتركّب في الديمومة. يُقابله الأنا السّطحي والاجتماعي الذي يبقى عند ظاهر الأشياء.

عبيد حاجات طبيعية، نستعيد من جديد حيويتنا  
ونصبح سادةً إلى جانب السيّد الأكبر»<sup>(28)</sup>.

يتحدّد الإنسان بمشاريعه لأنه فنان نفسه. يبقى خالقاً  
لمشروعه ويتقدّم لأنه يتغيّر وابتكر ويتطوّر. فهو في تقدّم  
مستمر على ذاته. يشتغل على مواده ويضفي شكلاً خاصاً  
عليها. يتعلّم مجاوزة المظاهر والانصراف عن اليقينيّات  
المجهولة. يعرف كيف يذهب إلى أبعد من ذلك ليُخاطر  
في أقاليم مجهولة. تتيح له إرادته في الاقتدار على تجاوز  
حدوده الخاصة. إنه كائن الافتتاح. وعليه، فإن الإنسان  
المستقل يُثبت سلطته على الأشياء وعلى ذاته. تُبرز إرادته  
علامة أفعاله وصرامته وفاعليته. ما هو أساس يكمن في  
انضباطه. الفرد الذي يضع ذكائه في خدمة أفعاله، يُسهم  
في العمل الكوني. يبحث الإنسان الحكيم عن تنمية قوّته  
بالتجربة والمعرفة. كل لحظة تنطوي على إمكانية تساعده  
على التحسّن والاكتمال بكل تواضع.

«تُبرز البهجة أن الحياة كانت ناجحة، وأنها  
انتشرت وانتصرت: كل بهجة لها نبرة انتصارية...  
في كل لحظة تكون فيها البهجة، يكون فيها

---

Bergson, *La pensée et le mouvant*, Essais et conférences, éd. Alcan, (28)  
p. 116.

الخلق : كلما كان الخلق غنياً ، كانت البهجة عميقة [...] خذوا المباهج النادرة ، مثل عند الفنّان الذي أنجز تأملهُ ، وعند العالم الذي اكتشف أو اخترع . تسمعون بأن هؤلاء الرجال يعملون من أجل الشهرة وأنهم يقتنون بهجتهم العميقة من الإعجاب الذي يلهمون به . خطأ كبير! يأتي الثناء والتشريف من فقدان اليقين في النجاح... نبحث عن التأييد للحصول على الاطمئنان ولدعم الحيوية غير الكافية للعمل الذي نريد التفاف المعجبين حوله... لكن من هو متيقنٌ من ذاته أنه ابتكر عملاً مستداماً ، فهو لا يحتاج إلى الثناء ويشعر نفسه فوق الشهرة ، لأنه خالقٌ ويعرف أنه كذلك ، وأن البهجة التي يشعر بها هي بهجة بديعة . إذا كان انتصار الحياة في كل المجالات هو الخلق ، ألا نفترض أن الحياة البشرية لها علّة وجودها في الخلق الذي يتواصل في كل لحظة عند كل البشر ، على خلاف من الفنّان والعالم : خلق الذات بالذات ، توسيع الشخصية بالجهد الذي يقتني الكثير من النزر القليل ، ويضيف أكثر ما يميّز به العالم من ثراء؟»<sup>(29)</sup> .

يُدرِك الإنسان العاقل بأنه ليس هنا ليبيكي على حظّه. فهو هنا ليبتكر إنسانيته وهذا يجعله سعيداً. ليس وعيه مجرد وعي من أجل الموت، بل هو أيضاً وعي يُجابه الوجود بكل الفرص المتاحة وبكل الإمكانيات اللانهائية. فالإنسان الحر والمسؤول يثابر من أجل إنسانيته. تنخرط أفعاله في تاريخ مشترك. فهو ليس وحيداً ومشروعه المختلط بالمشاريع الأخرى، يصبح مشروعاً جماعياً. كل واحدٍ ينهمك في عمله يمكنه أن يُسهم في اكتمال الإنسانية جمعاء. لذا، لم يحن الوقت لليأس من الإنسان. لا يدل الإنسان على الوجود الحر فقط. له واجبات تجاه إنسانيته. إذا لم تسر الأحداث بما يشتهي، لكنه يجابهها بحكمة، يمكنه ساعتها القبول بالطوارئ وبالوضعيات الصّعبة والخطيرة. يرتقي الإنسان الحكيم إلى الطمأنينة العقلية والجسدية بالتحكّم في الذات، وهذا يجعله حُرّاً ومستقلاًّ. هناك حتماً فرق بين الحياة التي نحلم بها والواقع. يتيح الوعي بالتفاوت بين الواقع الوجودي والمثال المبلور حوله، مجابهة الأشياء بحكمة وروية.





## خاتمة

هذا الدِّفاع عن الفلسفة من شأنه أن يُبيِّن أن التَّفلسُف لا سنَّ له. نشير إلى أن وراء إرادة النُّصح بممارسة الفلسفة لا تختفي فكرة تبسيط «التَّفلسُف». الدَّهشة، التفكير، التثقيف، إثراء المعرفة بقراءة القدماء هي كلها أفعال تتيح فهم الفلسفة وإدراك أمثل لمعنى الوجود. هكذا، يفلت الإنسان من الظنون العامة. يُفكَّر بذاته ويظفر بإنسانيته. الإنسان هو كائن عاقل وكائن من أجل الموت. من شأنه أن يُضفي المعنى على حياته وأفعاله. لا يبقى حبيس التراجيدي من وجوده، أو مندفعاً في قرار طائش، بل يبقى منتبهاً إلى الحياة، وإلى الآخر، وإلى العالم الذي يحيط به. عندما يرتاح في زمانه ويعي مسؤوليته، يكون مُتاحاً للغير، ويكون من ثمَّ متسامحاً. تُشكِّل ممارسة الفلسفة أداةً ناجعة لعبور مختلف مراحل العُمر والحياة. هكذا يُنافس الإنسان الفيلسوف والخالق سعادة الحكيم.



## مقتطفات

(1) «إنها الدّهشة التي دفعت المفكرين الأوائل نحو التأمّلات الفلسفية. اصطدموا في البداية بصعوبات بارزة، ثم بتقدّمهم التّدرّجي، عملوا على حل المشكلات المهمّة، مثل ظواهر القمر والشمس والنجوم وأخيراً أصل الكون. اكتشف المشكلة وإبداء الدّهشة معناه الاعتراف بجهله الخاص (لذا، محبّة الأساطير هي إظهار قدر من الفلسفة، لأنّ الأسطورة مرّكبة من العجيب الخلاب). إذا كان المغزى هو الإفلات من الجهل، فإنّ الفلاسفة الأوائل انقطعوا للفلسفة وواصلوا اقتناء العلم من أجل المعرفة وليس من أجل غاية نفعية. ما وقع يؤخذ دليلاً على ذلك: كل الصناعات المُطبّقة على الحاجيات والصناعات التي تهتم بالسعادة وبهجة الحياة، كانت معروفة من قبل، عندما سعى الأولون في البحث عن نظام معرفي يشملها. فمن البديهي أن في تعاطينا للفلسفة لا نبتغي غاية أخرى. كذلك، مثلما نُسمّي الإنسان الحر الكائن الذي له غايته في ذاته ولا يوجد من أجل شيء آخر، هذا العلم هو الوحيد من بين العلوم

الذي يبقى حُرًا، لأنه الوحيد الذي له غايته في ذاته»

أرسطو، الميتافيزيقا، أ

(2) «لست أدري إن كان يجب عليّ أن أحدثكم عن تأملاتي الأولى هناك، لأنها أدخل في عالم المجردات وأبعد عن متناول الجمهور بحيث لا يسيغها ذوق الناس جميعاً. ومع ذلك، لكي يُستطاع الحكم في ما إذا كانت الأصول التي عدتها هي على قدر من الوثاقة كافٍ، وجدتني شبه مضطر إلى أن أتحدّث عنها: لاحظتُ منذ زمنٍ طويل أنه فيما يختص بالأخلاق، فإن المرء محتاج بعض الأحياء إلى أن يتبع آراء يعرف أنها موضوع للشك، كما لو كانت لا تحتل شكًا، وقد سبق القول في ذلك ولكن نظرًا لرغبتني إذ ذاك في أن أفرغ للبحث عن الحقيقة، رأيتُ أنه يجب عليّ أن أفعل نقيض ذلك، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك، على أنه باطل على الإطلاق، وذلك لأرى أن كان لا يبقى في اعتقادي بعد ذلك شيء لا يتحمّل الشك. وكذلك لما كانت حواسنا تخذعنا أحياناً، أردت أن أفرض أنه ليس من شيء هو في الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيّله، ولأن من الناس من يخطئون في التفكير، حتى في أبسط

أمور الهندسة، ويأتون فيها بالمغالطات، فإنني لما حكمتُ بأنني كنتُ عرضةً لزلل مثل غيري، نبذتُ في ضمن الباطلات كل الحجج التي كنتُ أعدها من قبل في البرهان، ثم لما رأيتُ أن نفس الأفكار، التي تكون لنا في اليقظة، قد ترد علينا أيضاً ونحن نيام، دون أن تكون واحدة منها إذ ذاك حقيقة. اعتزمتُ أن أرى أن كل الأمور التي دخلت إلى عقلي، لم تكن أقرب إلى الحقيقة من خيالات. ولكن سرعان ما لاحظتُ أنه، بينما كنتُ أريد أن أظنَّ أن كل شيء باطل فقد كان حتماً بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير، شيئاً من الأشياء، ولما انتبهتُ إلى أن هذه الحقيقة: أنا أفكر إذاً أنا موجود، كانت من الثبات والوثاقة (واليقين) بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ، حكمتُ أنني أستطيع مطمئناً أن آخذها مبدأً أولاً للفلسفة التي أتحراها»

ديكارت، مقالة في المنهج

[ترجمة محمود محمد الخضيري،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 212-214]

مكتبة

t.me/soramnqraa

(3) «كتب دوستويفسكي: "إذا لم يوجد إله، كل شيء يصبح مباحًا". هذا هو منطلق الوجودية. بالفعل، كل شيء مباح بغياب الإله، وعليه الإنسان متروك لحاله، لأنه لا يجد في ذاته ولا في خارج ذاته إمكانية التعلُّق بشيءٍ ما. لا يجد الذرائع. إذا كان الوجود يسبق الماهية، لا يمكن بتاتًا التفسير بالرجوع إلى الطبيعة البشرية المعطاة والثابتة؛ بتعبير آخر، لا وجود لحتمية، الإنسان حرٌّ، والإنسان هو الحرّيّة. من جانب آخر، إذا لم يوجد إله، لا نجد أمانًا القيم أو النُظم التي تُبرّر سلوكنا. وعليه، لا وجود وراءنا ولا أماننا، في المجال الناصع للقيم، مُبرّرات أو ذرائع. نحن وحيدون، دون أعذار. هذا ما أعبرُّ عنه عندما أقول بأن الإنسان محكومٌ عليه بأن يكون كائنًا حرًّا. محكومٌ عليه، معناه أنه لم يخلق نفسه، ومع ذلك هو حرٌّ، لأن بمقدار مع حلٍّ في هذا العالم، فهو مسؤول عمّا يفعله. لا تؤمن الوجودية في قوّة العاطفة. لا يعتقد أن العاطفة هي سبيلٌ عارم وهذّام يؤدّي بالإنسان حتمًا نحو بعض الأفعال، والذي تصير من ثمَّ عُذرًا. تعتقد الوجودية في أن الإنسان مسؤول عن عاطفته، ولا تعتقد كذلك في أن الإنسان بإمكانه أن يجد النّجاة في علامة موضوعة في الأرض تُوجّهه؛ لأنها تعتقد بأن الإنسان يفكُّ بنفسه شيفرة

العلامة كما يحلو له. فهي تعتقد إذاً أن الإنسان، بدون  
دعامة أو نجاة، محكومٌ عليه في كل لحظةٍ بأن يُبدع  
إنساناً»

سارتر، الوجودية بوصفها نزعة إنسانية

## أسئلة من أجل النقاش والمقالة الفلسفية

- ❖ لماذا هناك فائدة في التفكير؟
- ❖ هل يمكن أن نضع مسافة بيننا وبين الأحكام المسبقة؟
- ❖ ما معنى القرار؟
- ❖ هل تتيح لنا الممارسة الفلسفية بأن نكون متسامحين؟
- ❖ كيف نحتفظ بحرية التفكير؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، يتوجب احترام التسلسل الزمني للأفكار المعروضة في هذا الكتاب.



## اختبر معلوماتك

- (1) ما هو معنى كلمة «فلسفة»؟
- (2) من هو الفيلسوف الذي أثبت أن «الفلسفة تنشأ من دهشتنا تجاه العالم وتجاه وجودنا الخاص، الذين يفرضان نفسيهما على عقلنا كلُّغز لم ينفك يشغُل بال الإنسانية لإيجاد الحل»؟
- (3) فيم تكمن الدهشة الفلسفية؟
- (4) هل يوجد شك بناءً؟
- (5) ما معنى الاعتدال؟
- (6) ما معنى الوجودية؟
- (7) من هي أثينا؟

(8) كيف تفادي المظاهر؟

(9) ما هي المراحل الأربع للفعل الإرادي؟

(10) من هو الفيلسوف المدعو بالإسطجري، مؤسس  
الثانوية وكان مُعلِّم الإسكندر الكبير؟

## الأجوبة

- (1) في الاشتقاق، الفلسفة، philosophia من الفعل philein تعني المحبّة أو الصّداقة، و sophia هي الحكمة، ومن ثمّ التّفلسّف هو محبّة الحكمة.
- (2) كتب الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور هذه العبارة في كتابه «العالم إرادةً وتمثلاً».
- (3) الدهشة الفلسفية هي أن الفكر «مذهول» بالأمر الذي أثار انتباهه. فهو مضطرب إلى غاية أن يبادر في طرح الأسئلة حول العالم ليتقدّم في المعرفة.
- (4) الشك البناء الذي نصح به ديكارت هو إعادة النظر في المعرفة التي نمتلكها للوصول إلى الحقيقة الأولى: «أنا أفكّر إذاً أنا موجودٌ».
- (5) الاعتدال هو الفضيلة التي تكمن في التحكّم في الانفعالات. فهي تبعث على تفادي الإفراط.
- (6) الأطروحة الأساسية للوجودية السارترية هي إثبات

أسبقية الوجود على الماهية. فالإنسان محكومٌ عليه بأن يختار ما أن يفعله بحريته. فهو المسؤول عن المشروع الذي يختاره.

(7) أثينا هي إلهة الحكمة والفلسفة.

(8) يمكن أن نتفادى الطابع الخادع للمظاهر باستعمال العقل. ما يهمُّ هو مجاوزة الظواهر الحسيّة للارتقاء إلى المعقول، إلى الأشياء في ذاتها، إلى الأفكار.

(9) يتعلّق الأمر بالسّبق والمشورة والقرار والفعل.

(10) إنه أرسطو، الفيلسوف الذي أثر على الفكر الغربي في رمّته.

## المراجع

- أرسطو، الميتافيزيقا.  
أرسطو، الأركانون.  
باشلار، تكوين الفكر العلمي: مساهمة في سيكولوجيا المعرفة  
الموضوعية.  
برغسون، الوعي والحياة.  
برغسون: الطاقة الروحية.  
برغسون، الفكر والمتحرك.  
كامو، أسطورة سيزيف.  
سيوران، في عبث الميلاد.  
دولوز، ضد أوديب.  
ديكارت، مقالة في المنهج.  
ديكارت، تأملات ميتافيزيقية.  
ديكارت، مبادئ الفلسفة.  
ميرتشيا إلياد، مظاهر الأسطورة.  
أبكتيتوس، الموجز.  
أبيقور، مذاهب ومأثورات، رسالة إلى مينيسييه.  
كانط، الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتية.

- كانط، نقد العقل الخالص.
- هيجل، مبادئ فلسفة الحق.
- هيجل، فينومينولوجيا الروح.
- ليبنتز، في الأصل الجذري للأشياء.
- ليبنتز، محاولات في اللطف الإلهي.
- ليبنتز، محاولات جديدة حول الفهم البشري.
- ماركوس أريوس، خواطر لأجلي.
- موران، المنهج.
- نيتشه، العلم المرح.
- نيتشه، هكذا تكلم زرادشت.
- أفلاطون، فيدون.
- أفلاطون، المأدبة.
- أفلاطون، الجمهورية.
- سارتر، الوجودية هي نزعة إنسانية.
- ريكور، فلسفة الإرادة.
- شوبنهاور، العالم إرادة وتمثلاً.

## مسرد الأعلام

- أبكتيتوس :Épictète : 146
- أبيقور :Épicure : 112 ، 119 ، 123 ، 124
- أرسطو :Aristote : 38 ، 49 ، 66 ، 67 ، 112 ، 156 ، 164
- أرليوس (ماركوس) :Marc-Aurèle : 99 ، 112
- أفلاطون :Platon : 34 ، 39 ، 51 ، 79 ، 84 ، 112 ، 128
- أناكساغوراس :Anaxagore : 31
- أناكسمندر :Anaximandre : 31
- أناكسيمانس :Anaximène : 31
- إلياد (مرثيا) :Mircea Eliade : 30
- باشلار (غاستون) :Gaston Bachelard : 43
- بارمنيدس :Parménide : 31
- برغسون (هنري) :Henri Bergson : 82 ، 147 ، 150
- بروتاغوراس :Protagoras : 73
- بيرون :Pyrrhon : 112
- دوستويفسكي :Dostoïevski : 158
- دولوز (جيل) :Gilles Deleuze : 92
- ديكارت (رنيه) :René Descartes : 47 ، 55 ، 56 ، 57 ، 60 ، 157
- ديمقريطس :Démocrite : 39

- ریکور (بول) Paul Ricœur : 37
- زینون (الایلی) Zénon d'Elée : 31
- سارتر (جون بول) Jean-Paul Sartre : 145 ، 159
- سقراط Socrate : 31 ، 112
- سیوران (ایمیل) Émile Cioran : 129 ، 134 ، 135
- شوبنهاور (آرثر) Arthur Schopenhauer : 40 ، 163
- طالیس Thalès : 31 ، 116
- فانین (لورانس) Laurence Vanin : 14 ، 19 ، 20
- فیثاغورس Pythagore : 116
- غالیلی Galilée : 116
- غرایش (جون) Jean Greisch : 13.
- کامو (ألیر) Albert Camus : 143
- کانط (ایمانویل) Emmanuel Kant : 51
- لوکریتیوس Lucrece : 105
- لیبتز (غتفرید فلہلم) Wilhelm G. Leibniz : 29 ، 43 ، 88 ، 90 ، 116
- موران (إدغار) Edgar Morin : 71
- مونتانی (میشال) Michel Montaigne : 133
- نیتشه (فریدریش) Friedrich Nietzsche : 69 ، 101 ، 103 ، 104
- نیوتن (إسحق) Isaac Newton : 116
- هیرقلیطس Héraclite : 31
- هیغل (فریدریش) Friedrich Hegel : 52 ، 113



## مسرد المصطلحات

### وترجماتها بالفرنسية والانجليزية والألمانية

- الإحساس (Sentiment, Feeling, das Gefühl) : 34 ، 73
- الإدراك (Perception, Perception, die Wahrnehmung) : 43 ، 60 ، 66 ، 88 ، 90
- الأخلاق (Morale, Morality, die Moral) : 84 ، 98 ، 106-102 ، 114 ، 116 ، 124
- الإرادة (Volonté, Will, der Wille) : 80 ، 82-84 ، 92 ، 149
- الأسطورة (Mythe, Myth, der Mythos) : 29 ، 30
- التأمل (Contemplation, Contemplation, die Betrachtung) : 34 ، 57 ، 58 ، 60 ، 114 ، 116 ، 117 ، 155 ، 156
- التأويل (Interprétation, Interpretation, die Auslegung) : 37
- التفلسف (le Philosophe, the Philosophize, das Philosophieren) : 22 ، 23 ، 29 ، 34 ، 39 ، 43 ، 52 ، 53 ، 55 ، 59 ، 60 ، 65 ، 71 ، 79 ، 92 ، 118 ، 123 ، 134 ، 141 ، 153
- الجسم (Corps, Body, der Körper) : 49 ، 81 ، 84-86 ، 120-123 ، 128 ، 133 ، 135
- الحذس (Intuition, Intuition, die Intuition) : 74 ، 83
- الحرية (Liberté, Freedom, die Freiheit) : 22 ، 59 ، 70 ، 80 ، 81 ، 85 ، 97 ، 98 ، 102 ، 118 ، 136 ، 145 ، 158
- الحساسية (Sensation, Sensation, die Empfindung) : 73

،79 ،67 ،66 ،55 ،39 ،36-34 : (Vérité, Truth, die Wahrheit) الْحَقِيقَةُ

156 ،85

،156 ،146 ،80 ،79 ،71 ،34 : (Jugement, Judgment, das Urteil) الْحُكْمُ

157

،115 ،113 ،72 ،65 ،60 : (Sagesse, Wisdom, die Weisheit) الْحِكْمَةُ

،163 ،141 ،135 ،124 ،123

،38 ،36 ،33 ،29 : (Etonnement, Astonishment, das Staunen) الدَّهْشَةُ

163 ،161 ،155 ،153 ،98 ،55 ،43-40

145 ،137 ،136 ،83 : (Mémoire, Memory, das Gedächtnis) الذَّاكِرَةُ

،98 ،93-91 ،89-87 ،85-83 ،81 : (Désir, Desire, die Lust) الرِّغْبَةُ

121-119

148 ،147 ،137 ،134-132 : (Temps, Time, die Zeit) الزَّمَنُ

72 ،70 : (Culture, Culture, die Kultur) الثَّقَافَةُ

38 : (Cause, Cause, die Ursache) السَّبَبُ أَوْ الْعِلَّةُ

123-121 ،23 : (Bonheur, Happiness, das Glück) السَّعَادَةُ

163 ،156 ،60 ،58 ،55 ،41 : (Doute, Doubt, der Zweifel) الشُّكُّ

،100 ،73 ،34 ،33 ،22 : (Opinion, Opinion, die Meinung) الظَّنُّ، الرَّأْيُ

153 ،122

163 ،103 ،92 ،90 ،89 : (Vertu, Virtue, die Tugend) الْفَضِيلَةُ

،48 ،43 ،41 ،38 ،30 ،22 : (Pensée, Thought, der Gedanke) الْفِكْرُ

115 ،102 ،101 ،92 ،72 ،70 ،61-58 ،55 ،52 ،51

،22 ،20 ،19-13 : (Philosophie, Philosophy, die Philosophie) الْفَلْسَفَةُ

،99 ،85 ،83 ،79 ،74 ،71 ،65 ،55 ،53-51 ،40 ،35 ،29

،163 ،161 ،155 ،153 ،141 ،134 ،128 ،124-121 ،119-111

164

الفِعْل (Action, Action, die Handlung) : 124 ، 98 ، 93 ، 90 ، 89 ، 84-79

162 ، 147 ، 145

الفَهْم (Entendement, Understanding, das Verständnis) : 67 ، 43 ، 34

القُوَّة (Force, Power, die Macht) : 93 ، 91 ، 90

العَدْل (Justice, Justice, die Gerechtigkeit) : 92 ، 90 ، 66

العَقْل (Raison, Reason, die Vernunft) : 54 ، 53 ، 51-49 ، 47 ، 33 ، 31

60 ، 62 ، 68 ، 74 ، 80 ، 84 ، 90 ، 92 ، 97 ، 99 ، 111 ، 122 ، 126

164 ، 141

المَعْرِفَة (Connaissance, Knowledge, die Erkenntnis) : 40 ، 36 ، 34 ، 31 ، 22

41 ، 57 ، 58 ، 60 ، 65-70 ، 72 ، 73 ، 80 ، 102 ، 114 ، 141 ، 164

المَعْنَى (Sens, Meaning, die Bedeutung) : 153 ، 141 ، 37

المَفْهُوم (Concept, Concept, der Begriff) : 71 ، 52 ، 34

المَوْت (Mort, Death, der Tod) : 151 ، 146 ، 145 ، 141 ، 135 ، 134 ، 128

النَّفْس (Âme, Soul, die Seele) : 128 ، 122-120 ، 87-84 ، 81 ، 49 ، 48

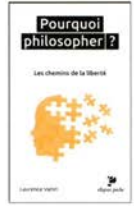
الوَاجِب (Devoir, Duty, die Pflicht) : 106 ، 105 ، 98 ، 97

الوَعْي (Conscience, Consciousness, das Bewußtsein) : 60 ، 43 ، 41 ، 34

61 ، 71 ، 79 ، 80 ، 82 ، 83 ، 141 ، 148 ، 151

مكتبة

t.me/soramnqraa



## لماذا نتفلسف؟ سُبُل الحُرِّية

سنرى في البداية كيف أن التساؤل والتفكير الفلسفي مفيدان للفكر، يُشجّعان فينا اقتناء مكان للحرية، بالابتعاد عن الظنون التي يحركها المجتمع وأحكامنا المسبقة. هل يمكن إذاً تعريف فعل التفلسف على أنه محاولة في التساؤل حول المعرفة في مواجهة الجهل؟ هل يمكن للفلسفة أن تُسهم في المصالحة بيننا وبين الغير والعالم المعاصر؟ يبدو أن التفلسف يتوافق مع فعل التساؤل. كان ميلاد الفلسفة يتميز بالفعل بالدهشة عند اليونان. لم تكن دهشة ساذجة ومغفلة، بل كانت دهشة حدسية تُشجّع على الفضول الفكري وعلى التفكير والتأمل. كان الأمر يتعلّق بالتساؤل حول الظواهر، والعمل على فهمها. إذا كانت الفلسفة ترتبط منذ البداية، في العصر القديم، بالشعائر والأسطورة، ومن ثمّ بنوع من الاعتقاد، فإنها انفكّت عن ذلك. تحرّرت من التصوّر الشعبي للكون. غير أن سؤال أصل العالم كان حاضراً بقوة. لأنّ في المرّة التي وجد فيها البشر أنفسهم «ملقون» (jetés) في العالم، فإنهم تساءلوا ولا يزالوا يتساءلون بإصرار عن المكان الذي أتوا منه، ولماذا ثمة كائن.

# telegram @soramnqraa

ISBN 978-614-466-095-9



786144660959

دار الروافد الثقافية - ناشرون

الحمراء - شارع ليون - برج ليون، ط6  
بيروت-لبنان - ص. ب. 113/6058  
خلوي: +961 3 69 28 28  
هاتف: +961 1 74 04 37

email: rw.culture@yahoo.com

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3  
محل رقم ا. المحمدية  
تلفاكس: +213 41 25 97 88  
خلوي: +213 661 20 76 03

email: nadimediton@yahoo.fr